1951

مكتبة نوبل

بار لاغركفيست

باراباس

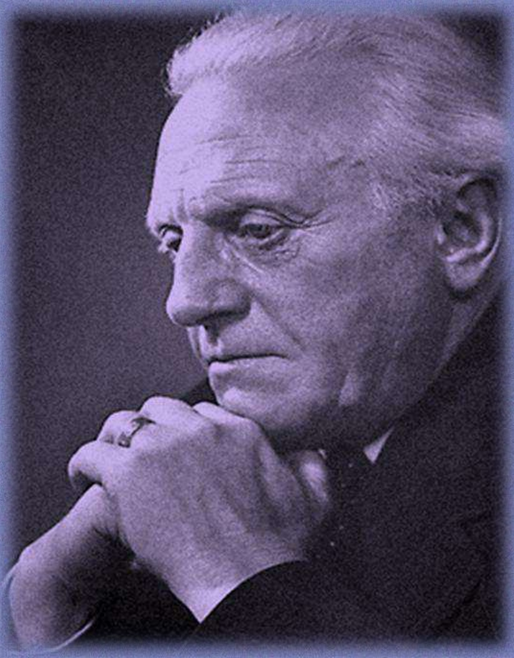

ترجمة : سعدي يوسف

علي مولا

باراباّس

مكتبة نوبل

Author:PAR LAGERKVIST	اسم المؤلف : پار لاغركفيست
Title:Barabbas	عنوان الكتاب : بارابّاس
Translator:Saadi Yousef	المترجم : سعدي يوسف
Al- Mada P.C.	الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
First Edition :year 2002	الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٢
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

© The Estate of Pär Lagerkvist
First published by Albert Bonniers Förlag AB, Stockholm

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٥١

مكتبة نوبل

پار لاغركفيست

باراباس

ترجمة

سعدي يوسف

مقدمة

في أدبٍ ظلَّ غالبُهُ، مهتمّاً بالأرضية القومية، وبتصوير عادات استكهولم والريف السويدي - ناهيك عن استغلاله النزوع الغنائي الثري - وبالفولكلور والفنتازيا البطولية، وقف پار لاغركفيست منذ أيامه «التعبيرية» المبكرة، ممثلاً للنزعة الثقافية التي ظلّت، مثله، بعيدةً، مترفعةً، وغير مستجيبة، إلى حدٍ ما، للوسائل الصاخبة في الإعلان الحديث. لاغركفيست، شاعراً ومفكراً، يحتلّ في أدب السويد واسكندنافيا، موقعاً مرموقاً لدى أبناء وطنه، ولدى الجمهور العارف في بلدان الجوار.

إن تقديم صورة هذا الرجل الذي تشكّل مؤلفاته خيرةَ ما أنتجت اسكندنافيا المعاصرة، عملٌ فيه إغراءٌ وصعوبة.

ما عدا بضع قصص قصيرة، وسرديةً درامية واحدة «القزم»، التي نالت ثناء النقاد - لا يعرف الناس من أعمال لاغركفيست شيئاً.

قبل أن أمضي في حديثي، عليَّ الإشارة إلى خصيصة غالبةٍ في مؤلفاته... إلى نبل في النبرة والأسلوب، إلى إخلاصٍ متفان لاستقلال التفكير، إلى حرفيةٍ لا تضاهى، ضمنت له، طوال نصف قرن، السمعة التي يستحقها، باعتباره «طليعياً».

ما من مشكلةٍ جمالية في عالم الأدب، لم يتصدَّ لها لاغركفيست، بالتحديد والحل، لا نظرياً وحسبُ، بل في تطبيقه الفني، سواء في ذلك، المسرح، والقصة القصيرة، وأعمال التأمل، والشعر.

مرَّ بمراحل عدة، منذ اهتمامه الأول بفن المسرح، يوم كان كوبو، وغوردون غريج يقومان بتجاربهما الأولى، وهو اهتمامٌ قاده إلى نتائج جريئة، وواردة الآن، مثل ما كانت من قبل؛ إلى تلك الانتاجات الغريبة، التي كانت تُنشر، أحياناً، وفي آن، سرديّاتٍ، أو مسرحياتٍ، مثل - الرجل الذي عاش مرةً ثانية - القزم - الرجل عديم الروح - الجلاّد - انتصار في الظلام - حجر الفلاسفة.

لقد مضى بعيداً من «حكايات القسوة» - التي لا يجمعها سوى العنوان مع قصص فيليبه دوليل آدم - أو المقطوعات القصيرة ذات البساطة البليغة التي لن ينكرها الكاتب الفرنسي لويس فيليب؛ أو فصول السيرة الذاتية التي تكشف عن طفولة متأملة مسكونةٍ في وقت مبكر بهواجس غريبة، وبتطلّعٍ ما بعد الموت، إلى تلك المقالات والقصائد المتوترة، المفعمة بحرقة ميتافيزيقية. لقد كانت صيحته عاليةً من الألم إلى السكينة، إلى ذلك الفرح الداخلي المنتصر على كل يأس؛ من التمرّد المبكّر إلى القبول الذي لم يكن رضوخاً البتة، مع أنه لم يكن في الغالب خارج نوبة من الشغف المحرق؛ من الحس الديني إلى حسٍ بالعقل، ومن إيمان بوجود مبدأ كامنٍ في منبع كلِّ مصير بشري.

مراحل عدة وضعت علامات رحلة حجه، والانتصارات التي حققها لها عديدٌ في معارك بميادين الأخلاق وعلم الجمال، والنضال الدائب بغية الوصول إلى تلك الممالك، ممالك الفكر، حيث تجد الروح تحققها.

لو كتب پار لاغركفيست بلغةٍ يسهل على القراء الغربيين أمرها لبلغ بدون شك منزلة أحد قادة عصرنا، رجلاً نادراً من تلك القلة الضرورية التي ترفع المشعل لتقود خطانا خلال عتمة عالمنا المطْبقة.

هذا العملُ الصغيرُ المترجم يبرهن خير برهان على أنه ظل متصلاً بمأساة فكرنا المعاصر، وعلى أنه - بالرغم من فلسفته - عارفٌ الرعبَ الفادح لمشكلاتنا، وأنه واجه اللغز المستعصي لمحنة الإنسان، مع رعب العمى الذي قُدِّر لنا أن نواجه، به، مشكلةَ الكون، وأنفسنا.

في «باراباس» الملغِز المأثور، بما فيه من عذاب روحٍ، ونبض إيمانٍ، واستجابةٍ أكيدة لتحركات الذهن البشري، تمَّ التعبير عن أحجية الإنسان ومصيره، والجوانب المتناقضة لدراما الإنسان الأساس، وصرخة البشر في نفثات موتها، وهي تورث الليلَ روحَها.

في هذا الكتاب، الأخير من أعماله، نرى التطوّر النهائي لفنٍ بلغ غاية الإيجاز والتقشف، ولشكل نُقِّي حتى حدّ الجوهريات.

«باراباس» هو المرحلة الأخيرة في عملية فكرية مضت أبعد من الأدب المحض، المرحلة الأخيرة لفن يجسد، برصانته المحبَّبة، المناخَ العاطفي لزماننا.

لوسيان موري

عزيزي لوسيان موري

ليس من شكٍ، في أن «باراباس» پار لاغركفيست، كتابٌ مرموقٌ. وأنا عميق الامتنان لك، إذ منحتني فرصةً مبكرةً لقراءته، شأنك مع الكتاب السابق للمؤلف نفسه «القزم» الذي حظي، العام الماضي، باستقبال حماسي من النقاد والقراء معاً.

حين جئتني بترجمة «باراباس»، تحدثتَ عنه بطريقة جعلتني أشعر برغبة محببةٍ في قراءته. لكن لم تكن لديّ، آنذاك، أي فكرة عن المدى الذي سأستمتع فيه، بالكتاب. لقد كنت بالمصادفة (وأكاد أقول بالمقدّر) مهيأ لمتابعة المضيّ فيه، ذلك لأنني كنت، الشهر الماضي غارقاً في دراسة «تاريخ أصول المسيحية». لقد استطاع رينان، بأستاذيته، أن يجعلني أدرك بأي دقة ذكية، أبرزَ پار لاغركفيست، المنابع الغامضة لوعي وليدٍ، معذَّب سراً، بمشكلة المسيح، آنَ المبدأ المسيحي لايزال في سيرورة تشكله، آنَ دوغما البعث لاتزال معتمدةً على الدليل غير المؤكد لقلة من الشهود السذّج الذين لم يردموا، بعد، الهوة بين الخرافة والإيمان.

لقد استخلصتُ، مما أخبرتني، حينها، يا عزيزي موري، فكرةً ناقصةً، عن المدى الذي تورّطت فيه، مغامرة باراباس، مع قصة حب سيِّدنا، وعن الدرجة التي ارتبطتْ بها، التحركات المضطربة لذهن اللص،

مع ما رأى، أو ظنّ أنه رأى، في الجُلجُلة، ومع الشائعات المختلفة التي تلت المأساة الإلهية - الحدث الذي قُدِّر لمصير الإنسانية جمعاء، في ما بعد، أن يتعلّق به.

مقياس نجاح لاغركفيست أنه تمكن، بمهارة، من أن يحافظ على توازنه، فوق حبل دقيق يمتد عبر الهاوية المظلمة الواقعة بين عالم الواقع وعالم الإيمان. تظلُّ الجملة الختامية للكتاب (عمداً، بدون شكٍ) ملتبسةً:-

«حين شعر بالموت يقترب، الموت الذي ظلّ يخافه دائماً، هتف بالظلام، كأنه يخاطبه: «إليك أُسْلِمُ روحي» -

«كأنه...» تركتْني أتساءلُ، إن كان (أي باراباس - المترجم)، بدون أن يدرك هذا، كان يخاطب، في الواقع، المسيحَ، وأتساءل إن لم يكن «الجليليّ» قد ظفر به، في نهاية الأمر. مدار الجليل، كما قال جوليان المرتدّ.

أقول لك، يا عزيزي موري، إن هذا الالتباسَ واردٌ أيضاً في النص الأصلي. إن اللغة السويدية أعطتنا، ولا تزال تعطينا، أعمالاً فائقة القيمة، حتى إن معرفة هذه اللغة ستشكِّل، سريعاً، بعضاً من عُدَّة مَنْ يدعو نفسه جيدَ الثقافة. نحن بحاجةٍ إلى أن نكون قادرين على معرفة الدور الهام الذي يمكن للسويد أن تؤديه في كونسرت أوربا.

أندريه جيد

-١-

الجـمـيع يعلم كـيف عُلِّقـوا، هناك، على الصلبـان، ومن كـانوا مجتمعين وقوفاً حوله: مريم أمه، ومريم المجدلية، وفيرونيكا، وسمعان القيرواني، الذي حمل الصليب، ويوسف الرامة الذي كفّنه. لكن على مبعدة يسيرة أسفل السفح، أو بالحريّ إلى جنب، كان يقف رجل مثبِّت العينينَ على المحتضر في الوسط، يراقب النزاع من اللحظة الأولى حتى الأخيرة. كان اسمه باراباس. هذا الكتاب عنه.

كان في حوالي الثلاثين، متين البنية، شاحب الملامح، أصهب اللحية، أسود الشعر. حاجباه أسودان أيضاً، وعيناه غائرتان كأنهما تريدان أن تختفيا.

تحت إحدى عينيه ندبةٌ عميقة حجبتْها لحيتهُ. لكن مظهر الرجل ليس بذي شأنٍ.

قد كان تتبّعَ الحشدَ، عبر الشوارع، طوال الطريق من قصر الحاكم، لكن على مبعدةٍ يسيرةٍ خلف الآخرين. حين تهاوى الربّيَ المنهكُ تحت صليبه، توقّفَ، ووقف ساكناً، برهةً، كي يتجنب اللحاق بالصليب، ثم أمسكوا بذلك الرجل سيمون، وأجبروه على حمله بدلاً من الربّيّ. لم يكن في الجمع رجال كثيرون، ماعدا الجنود الرومان طبعاً؛ النسوة كنّ الكثرة،

يتبعن الرجل المحكوم، وعدد من الصغار الموجودين، دوماً هناك، حين يُسارُ برجلٍ ما، على هذا الطريق، كي يُصلب - إنه نوعٌ من التغيير لديهم. لكنهم سرعان ما تعبوا، فعادوا إلى ألعابهم، متوقفين لحظةً لينظروا إلى الرجل ذي الندبة الطويلة أسفل الخد وهو يمشي خلف الآخرين.

الآن، كان واقفاً هنا، على تلة الإعدام، ينظر إلى الرجل المعلّق على الصليب الوسط، دون أن يحيد ببصره عنه. الحق أنه لم يرد المجيء إلى هنا، البتة، حيث كل شيء غير ظاهر، ذو عدوى؛ وإن وطأ المرء هذا المكان المشْبَع اللعين فإن بضعةً منه ستظلُّ هنا، ولسوف يرغم على العودة إلى المكان، ولن يغادره أبداً. الجماجم والعظام متناثرة على الأرض، مع الصلبان المتهاوية، أو نصف المتهاوية، التي لم تعد ذات نفع، لكنها متروكة لتظلّ هنا، إذ لن يلمس أحد شيئاً. لِمَ كان واقفاً هنا؟ إنه لم يعرف هذا الرجل، وليست له علاقة به. ما الذي يفعله في الجُلجُلة، هو الذي أُطْلِقَ سراحه؟

رأس المصلوب تدلّى، وكان ثقيل الأنفاس، لن يطول به الأمر الآن. لاشيءَ عجيباً في هذا الشخص. كان جسمه نحيلاً مضنى، وذراعاه رقيقتين كأنهما لم تستخدما في شيء. أمرؤ غريب. اللحية غير كثّة، والصدر أملط، مثل صدر صبيّ. إنه لم يحببْه.

منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها، في باحة القصر، شعر بأن ثمة أمراً غريباً حوله. لم يستطع أن يقول ما هذا الأمر: إنه إحساسٌ محضٌ. لم يتذكر أنه رأى يوماً شخصاً يشبهه. مع أن السبب قد يكون مجيئه مباشرةً من الزنزانة، فلم تألف عيناه الوهج. ولهذا، منذ النظرة الأولى،

بدا الرجل كأنه محوط بنور ساطع. بعد ذلك، سرعان ما اختفى النور، بالطبع، وعاد بصره طبيعياً، ليشمل الأشياء الأخرى إلى جانب الشخص الواقف هناك، وحيداً في باحة القصر. لكنه لايزال يظن أن هناك أمراً جدَّ غريب حوله، وأنه شخص مختلف عن سواه. وبدا له أن من غير المعقول أنه كان سجيناً ومحكوماً عليه بالموت، مثل ما كان هو - لكن، كيف بمقدورهم أن يصدروا حكماً مثل ذاك؟ كان واضحاً جداً أنه بريء.

ثم أخذوا الرجلَ، وأخرجوه كي يُصلب - أما هو نفسه، فقد نزعوا عنه أغلاله وأخبروه أنه طليق. لم يكن ذلك من فعله قطّ. كان ذلك شأنهم. كانوا أحراراً في اختيار من أرادوه، وتمّ الأمر بتلك الطريقة. لقد حكم عليهما، هما الاثنين، بالموت. لكن، كان ينبغي أن يُطلق سراح أحدهما. لقد استغرب هو نفسه من اختيارهم. وبينما كانوا يفكّون سلاسله ويحرِّرونه منها، رأى الرجلَ الآخر بين الجنود، يختفي في المجاز، والصليب على ظهره مُذّاك.

ظل واقفاً ينظر إلى الرواق الخالي. ثم دفعه الحارس، صائحاً به: ماذا تفعل هنا، محدِّقاً؟ اخرج من هنا، أنت حر! صحا من غفلته، وخرج من المجاز نفسه، وعندما رأى الآخر يجرُّ صليبه، في الشارع، سار خلفه. لِمَ؟ هو لم يعرف. ولم يعرف أيضاً السبب في وقوفه هنا، ساعةً بعد ساعة، يراقب الصلب، والاحتضار المعذِّب الطويل، مع أن الأمر لا يعنيه بتاتاً.

هؤلاء الواقفون حول الصليب هناك، ليس من حاجة، بالتأكيد، إلى وجودهم؟ إلا إذا أرادوا هم ذلك. ليسوا مرغمين على المجيء إلى هنا وتعريض أنفسهم للنجاسة. لكن، لاشك في أنهم أقارب وأصدقاء

حميمون. عجيب ألاّ يبدو عليهم أنهم مهتمون بالتعرّض للنجاسة.

تلك المرأة، يجب أن تكون أمه. مع أنها لا تشبهه. لكن، مَنْ يمكن أن يشبهه؟ إنها تبدو مثل فلاحة، شديدة ومتجهِّمة، وظلت تمسح ظاهر يدها على فمها وأنفها، اللذين كانا يسيلان، فقد كانت دموعها تكاد تنهمر. لكنها لم تبك. إنها لم تأسَ كما يأسى الآخرون، كما لم تنظر إليه كما ينظر الآخرون. هكذا، كان من الواضح أنها أمه. ربما شعرت بالحزن عليه أكثر منهم، لكن بدا أنها تعاتبه لأنه معلق هناك، ولأنه جعل نفسه يُصلب، مع كل براءته وطهره. إنها لم تستطع تقبّل هذا. هي عرفت أنه كان بريئاً، لأنها كانت أمه. ومهما فعل، ستظل ترى هذا.

هو، نفسه، لم تكن لديه أمٌ. ولا كان له أبٌ كذلك لهذا السبب. هو لم يسمع حتى إشارة عن أحد. وليس له من أقارب، بقدر معرفته. ولهذا، لو أنه كان الشخص الذي سوف يُصلب هنا، فلن تذرف عليه دموعٌ كثيرة. لن يكون الحزن مثل هذا. كنّ يلطمن صدورهن، ويُدمِنَ اللطمَ كأنهن لم يعرفن لهذا الحزن مثيلاً. وطوال الوقت يتعالى النحيبُ والعويلُ الفظيعان.

لقد عرف جيداً الشخص المعلَّق على الصليب الذي إلى يمناه. ولو أن هذا الشخص رآه، بالمصادفة، يقف هنا، فقد يظنه جاء بسببه، كي يراه يتعذب عذاباً شديداً. هو لم يكن لذلك السبب البتة. لكنه ما كان ضد أن يراه يُصلب. إن كان أحد يستحق الموت فهو ذلك الوغد. ليس لما حكم بسببه، وإنما لأمر جدُ مختلف.

لكن، لمَ كان ينظر إليه، لا إلى ذلك الذي في الوسط، المعلَّق هناك بدلاً منه؟ بسببه جاء. هذا الرجل أجبره على الصعود إلى هنا، وأنه

لمسيطر عليه سيطرة غريبة. سيطرة؟ لا أحد يبدو عديم الحوْل مثله. وأكيداً لن يكون أحد أشدَّ تعاسةً منه وهو على الصليب؛ الآخران لا يعانيان العذابَ مثله. واضح أن لديهما بُقيا قوةٍ أكثر. لم تكن لديه القوة حتى على إبقاء رأسه منتصباً، فها هو ذا متدلٍ.

الآن، رفع رأسه قليلاً، الحال كما هو، الصدر النحيل الأملط يجيش باللهاث، واللسان يلعق الشفتين اليبيستين. أصدر غمغمةً عن أنه عطشان. الجنود الذين كانوا يلعبون النرد، منهمكين، على مبعدة يسيرة، في السفح، وضجرين لأن الرجال المعلقين كان احتضارهم طويلاً، هؤلاء الجنود لم يسمعوه. لكن أحد الأقارب هبط وأخبرهم. نهض جندي متردداً، وغمس اسفنجة في إبريق، ومدها إليه على طرف عصا، لكنه حين ذاق السائل العفن الصبيغ المقدَّم إليه، رفضه. أمَّا ذلك السافل فقد ظلّ واقفاً مبتسماً ابتسامةً عريضةً، وحين عاد إلى أصحابه ضحكوا جميعاً لما حدث. الأوغاد!

الأقارب، أو كائنين من كانوا، نظروا يائسين إلى المصلوب الذي كان يلهث ويلهث؛ واضح أنه سيُسلْم الروحَ بعد قليل. وفكّر باراباس، بأن في هذا خيراً، فالمسكين لن يتعذب بعد ذلك. آه لو حلَّت النهاية! بعدها سوف يسرع مبتعداً، ولن يفكر بهذا ثانيةً!..

لكن، بغتة، أعتم التلُّ بأجمعه، كأن النور خبا من الشمس، كان الظلام مطبقاً، وفي العتمة صاح المصلوب:

- إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟

كان للصيحة وقعٌ رهيبٌ. ترى، ماذا قصدَ؟ ولِمَ اظلمت الدنيا؟ الوقت ظهر. إنه لأمر لا يصدق. الصلبان الثلاثة لا تكاد ترى في

الأعلى. الحال منذرٌ. شيء رهيب سوف يحدث، لا محالة.

وثب الجنود على أقدامهم، وامتشقوا أسلحتهم - ما حدثَ أمرٌ إلا وأسرعوا إلى أسلحتهم. وقفوا حول الصلبان مع رماحهم، وقد سمعهم يتهامسون مستنفرين. الآن هم خائفون! الآن لم يعودوا يضحكون مكشرين! كانوا متطيِّرين، طبعاً.

هو، نفسه، كان خائفاً. وسرَّ حين بدأ النور يعود، وآل كل شيء إلى طبيعته. انكشفت الدنيا تدريجاً، حتى لكأنه الفجر. انتشر نور النهار عبر التل وأشجار الزيتون التي تسوِّره، وعادت الطيور التي كانت صمتت، إلى تغريدها. تماماً كأنه الفجر.

الأقارب هناك كانوا واقفين في منتهى السكون. لاصوت بكاء أو عويل يصدر منهم. كانوا ينظرون، حسب، إلى المصلوب - حتى الجنود كانوا كذلك. كل شيء صار هامداً.

الآن، باستطاعته الذهاب أنَّى شاء. لقد انتهى كل شيء، وأشرقت الشمس من جديد، وعاد كلّ شيء إلى حالته الأولى. فقط اعتمت الدنيا، برهةً، لأن رجلاً مات.

أجل، سيذهب الآن. سيذهب طبعاً. لاشيء يُبقيه هنا، خاصةً بعد أن مات ذلك الآخر. لم يعد ثمّة سبب. لقد أنزلوه من الصليب - رأى ذلك قبل أن يذهب. الرجلان كفّناه بكفنٍ كتّان نظيف - لحظَ ذلك.

كان الجسد أبيض تماماً، وقد اعتنوا به عنايةً شديدةً، كأنهم كانوا يخشون أن يؤذوه ولو قليلاً، أو أن يؤلموه أي ألم. لقد تصرفوا على نحوٍ غريب. على أي حال، لقد صُلِبَ، وانتهى كلُّ شيءٍ. من المؤكد أنهم كانوا قوماً غريبين. لكن الأم ظلت واقفةً، ناشفة العينين، تنظر إلى ما

كان ابنُها. ووجهها الخشن، ذو الملامح السّمر، كأنه كان عاجزاً عن إظهار حزنها، كان يُظهر فقط أنها لم تستطع الإلمام بما جرى، وأنها لن تستطيع نسيانه. لقد فهمها فهماً أفضل.

عندما تحرك الموكب الحزين، وتجاوزه بمسافة قليلة؛ الرجال يحملون الجسد المكفّن، والنسوة يتبعنهم، همست إحدى النسوة للأم - مشيرةً إلى باراباس. توقفت، ونظرت إليه نظرةً عاجزةً عاتبةً لن ينساها أبداً. مضوا منحدرين، على درب الجُلجُلة، ثم انعطفوا يساراً.

تبعهم عن بعد، كي لا يروه. في بستان غير بعيد أسجوا الميت في قبرٍ حُفر في الصخر. وعندما صلّوا قرب القبر، دحرجوا حجراً كبيراً أمام المدخل، ومضوا.

سار إلى القبر، وتوقف برهةً. لكنه لم يصلِّ، فهو آثمٌ لن تُقبل صلاته، خاصة لأنه لم يكفّر عن جريمته. كما أنه لم يعرف الرجلَ الميت. مع هذا، وقف هناك حيناً ثم مضى، هو أيضاً، نحو أورشليم.

-٢-

داخل بوابة داود، وبعد قليل من المضي في الشارع التقى الفتاة ذات الشفة المشرومة. كانت ملتصقةً بحيطان البيوت، وتظاهرت بعدم رؤيته، لكنه لحظ أنها فعلت ذلك وأنها لم تتوقع رؤيته ثانية. ربما ظنت أنه صُلب.

سار خلفها ثم لحق بها - وهكذا التقيا. لم يكن بحاجة إلى أن يكلمها، واستغرب لأنه فعل ذلك. أدرك هو أيضاً أنها استغربت كذلك. نظرت إليه على استحياء حين كانت الضرورة تستدعي.

لم يتكلما عما في دواخلهما؛ اكتفى هو بمجرد سؤالها عن وجهتها، وعما إذا كانت سمعت شيئاً عن جلجال. أجابت بما لا يزيد على الضروري، وقضمت كلماتها كالعادة حتى صعب عليه التقاط ما قالت. لم تكن تقصد مكاناً محدداً، ولم تجب حين سألها عن مأواها. رأى تنورتها مهلهلةً عند الحاشية، وقدميها العريضتين القذرتين حافيتين. انقطع حديثهما، وسارا معاً، بدون كلام.

من مدخلٍ مفتوحٍ لأحد البيوت، مثل جُحرٍ أسود، ارتفعت ضجة أصوات عالية، وبمجرد مرورهما خرجت امرأة ضخمة مهتاجة سمينة وصاحت بباراباس. كانت متعتعة سكراً تلوح بذراعيها المتلئتين

مهتاجة، فرحة برؤيته، تريد منه أن يدخل بدون مزيد من اللغو. تردد، وبدا متضايقاً من رفيقته الغريبة، لكنها سحبته، ودفعتهما كليهما إلى الداخل.

حيَّته صيحات رجلين وثلاث نساء لم يستطع رؤيتهن إلا حين ألفت عيناه الظلام الشفيف. أفسحوا، متلهفين، مكاناً له على الطاولة، وصبوا له الخمر، متكلمين في آن: عن خروجه من السجن وإطلاق سراحه وعن كونه محظوظاً بأن الآخر قد صلب بدلاً منه! وكانوا ثملين بالخمر وبالرغبة في مشاركة حظه السعيد، يلمسونه لينقلوا حظه إليهم هم، وأدخلت إحدى النساء يدها تحت ثوبه ولمست صدره المُشْعر، مما جعل المرأة البدينة ترعد ضحكاً.

شرب باراباس معهم، لكنه تكلّم قليلاً. ظل أغلب الوقت يحدق أمامه، بعينيه الغائرتين السوداوين كأنهما تريدان أن تختفيا. ظنوه ممسوساً قليلاً. مع أنه كان كذلك في بعض الأحيان.

النساء صببن له مزيداً من الخمر. ظل يشرب ويدعهم يتكلمون، غير مشارك في الحديث إلا قليلاً.

أخيراً، شرعوا يسألونه عمّا به، ولمَ هو هكذا. لكن المرأة الضخمة السمينة طوّقت عنقه بذراعها وقالت إنه ليس عجباً أن يبدو ممسوساً شيئاً ما، بعد إلقائه مكبلاً بالسلاسل، في زنزانة، ولمدة طويلة، شبه ميت؛ إن حكم على شخص بالموت، فهو ميت إذن؛ فإن أطلق سراحه، وتم العفو عنه، فإنه لايزال ميتاً، إذ كان هكذا على أي حال، فقط بُعث ثانية من الموت، وهو أمر ليس مثل أن يكون المرء حياً، مثلنا نحن. وعندما ضحكوا من كلامها، فقدت السيطرة على نفسها، وأعلنت أنها

ستطردهم جميعاً باستثناء الفتاة مشرومة الشفة، التي لا تعرف عنها شيئاً، لكنها تبدو لها طيبة، وإن كانت بسيطة شيئاً ما. كادت خاصرتا الرجلين تنقصفان ضحكاً مما قالته لهما المرأة، لكنهما هدآ بعد ذلك وأخذا يهمسان متحدثين إلى باراباس، قائلين إنهما سيصعدان الليلة، ثانية، إلى الجبال، حين هبوط الظلام، وإنهما هبطا فقط، إلى هنا، كي يضحِّيا بجدي جلباه معهما. لم تُقبل التضحية به، ولهذا ضحيا بحمامتين ناصعتين بدلاً من الجدي. كان لديهما فائض من مال، فقضيا به وقتاً ممتعاً مع هذه المرأة السمينة وسألاه عن وقت صعوده إلى هناك، ثانيةً، وأخبراه عن وكرهما الآن. أومأ باراباس برأسه، فاهماً، لكنه لم ينطق بجواب.

إحدى المرأتين شرعت تتكلم عن الرجل الذي صلب بدلاً من باراباس. كانت رأته مرة، وإن كان عابراً فقط، وقد قال الناس إنه متفقّه بالكتاب، يطوف متنبِّئاً، ويصنع المعجزات. لاضرر في هذا، وكثيرون فعلوا ذلك، ولهذا يجب أن يكون هناك سبب آخر لصلبه. كان امرأً بالغ النحول، هذا كل ما تذكرته المرأة. امرأة أخرى قالت إنها لم تره البتة، لكنها سمعت أنه قال إن الهيكل سينهدم، وإن أورشليم ستدمرها زلزلةٌ، آنذاك ستلتهم النيران السماء والأرض كلتيهما. يبدو مجنوناً، ولا عجب في أنه صلب لذلك. لكن الثالثة قالت إنه كان يصحب الفقراء في الغالب، وقد اعتاد أن يعدهم بأنهم سيدخلون في ملكوت الله، حتى العواهر، وقد استمتعوا بذلك استمتاعاً عظيماً، وإن فكروا بأنه سيكون جميلاً لو تحقّق هذا.

أنصت إليهم باراباس، ولم يعد يبدو غافلاً عنهم، لكنه ظلّ حتى

بلا ابتسامة. أجفلَ، حين طوقت المرأة البدينة، عنقه، ثانيةً، بذراعها، وقالت إنها غير مهتمة أدنى اهتمام بمن يكون ذلك الرجل. إنه ميت الآن على أي حال. وعلى أي حال، كان هو مَنْ صُلب، وليس باراباس. وهذا هو لُبُّ الأمر.

الفتاة ذات الشفة المشرومة، جلست أولاً متكومةً على نفسها، غير منتبهة لما يجري إطلاقاً. ثم أنصتت إنصاتاً شديداً إلى وصف ذلك الرجل الآخر، وشرعت الآن تتصرف تصرفاً غريباً. نهضت، ونظرت إلى رفيق الشارع، نظرةَ رعبٍ عمَّت وجهها الشاحب النحيل، وصرخت بصوتها الغريب الأخنّ:

- باراباس!

لم يكن الأمر ذا أهمية بحد ذاته، فقط نادته باسمه، لكنهم نظروا إليها مستغربين، عاجزين عن معرفة ما أرادته بصرختها تلك. باراباس نفسه بدا غريباً، زائغ العينين، كحالهما أحياناً، حين يريد أن يتجنب النظر إلى أي أحد. لم يفهموا لمَ كانت الصرخة؛ على أي حال، لا يهم، والخير أن يُهمل الأمر. ومهما قال المرء عن باراباس إنه صديق جيد وما إلى ذلك، فقد كان غريباً إلى حد. وليس بمقدور أي امرئ أن يعرف كيف يتعامل معه، حقاً. تكوَّمت، ثانيةً، على حصيرتها المفروشة على الأرضية التراب، ولكنها ظلّت تنظر إليه بتلكما العينين المتّقدتين.

ذهبت المرأة السمينة، وجاءت بطعام إلى باراباس. خُيِّل إليها أنه جائع متضوّر، فأولاد الكلبة القذرون أولئك قد لا يُطعمون سجناءهم. وضعت أمامه خبزاً وملحاً وقطعة من لحم الضأن القديد. أكل، لكن قليلاً، وسرعان ما قدّم ما فَضُلَ إلى الفتاة مشرومة الشفة، كأنه أكل

حتى الشبع. التهمت الطعام مثل حيوان، ثم اندفعت خارج البيت: بغتةً لم تكن هناك.

غامروا بالسؤال عمن تكون المرأة، لكنهم لم يحظوا بجواب طبعاً. كان ذلك في جِبِلَّتِهِ. كان دائماً هكذا، كتوماً في ما يتصل بشؤونه الخاصة.

- أي نوعٍ من المعجزات صنعَ، ذلك الواعظُ؟

قال ذلك، ملتفتاً إلى النسوة، وماذا كان وعظه؟

قلن إنه أبرأ المرضى، وطرد الأرواح الشريرة، وقيل إنه أحيا الموتى أيضاً، لكن لم يتأكد أحد من الحقيقة. طبعاً، لا يمكن أن يحدث هذا.

أمّا وعظه فلم تكن لديهن فكرةً عنه. لكن إحداهن بلغتها حكايةٌ عن شخص هيأ وليمةً كبيرةً، في عرس أو ما سواه، لكن لم يأت الضيوف، لذا كان عليهم أن يخرجوا إلى الشوارع، ويدعوا أي شخص، وكلٌّ من استطاعوا دعوتهم، كانوا متسولين، وفقراء متضوّرين، لايكادون يسترون عُريهم، ولهذا استشاط السيد غضباً، أو قال في الأقل إن ذلك لن يهمّ - الحقُّ أنها لا تتذكر تماماً، القصة. وعندما قالت إحدى النسوة إنه قد يكون ممن اعتقدوا أنهم المسيح، ضرب لحيته الحمراء الكثّة، وجلس غارقاً في التفكّر - المسيح؟... لا، لم يكن المسيح، تمتم لنفسه:

- لا. طبعاً لايمكن أن يكون، قال أحد الرجال، وإلاّ ما كانوا قادرين على صلبه، ولكان أولئك الأوغاد صُعقوا أرضاً. ألم تعرف هي ما كان المسيح؟

- لا، طبعاً. في تلك الحال كان سينزل من صليبه ويذبحهم جميعاً!

- مسيح يسمح بصلبه! أسمعت بشيء كهذا!

ظلّ! باراباس جالساً، ولحيته في يده العريضة، ناظراً إلى الأرضية التراب. لا. لم يكن المسيح...

- آه... اشرب الآن يا باراباس، ولا تجلس هكذا مغمغماً، قال أحد أصحابه، وهو ينخسه في خاصرته - غريبة كانت جرأته، لكنه فعلها.

باراباس، أخذ، بالفعل، جرعةً من الإبريق، ثم أعاده إلى مكانه، في مثل الذهول. النسوة ملأن الكأس ثانيةً، بسرعة، وجعلنه يشرب أيضاً. لابدّ من دبيب للخمر، لكن يبدو أن تفكّراته كانت في مكان آخر. نخسه الرجل ثانية.

- لا عليك الآن، اشرب وامرح! ألستَ سعيداً بأنك طليق، جالس هنا، تستمتع بين أصدقاء، بدلاً من التعفّن معلقاً على صليب؟ لقد نجوتَ بجلدك، وأنت حي. أنت حي، يا باراباس!

قال: نعم. نعم، طبعاً. طبعاً...

بهذه الطريقة جعلوه يتخلى، تدريجاً، عن التحديق في الفراغ، ويعود إلى حال سوي أكثر. جلسوا يشربون ويتحدثون عن هذا الشأن أو ذاك، وظنوا أن باراباس في وضع غير غريب.

لكنه سألهم أثناء حديثهم، عن رأيهم في ظلام اليوم، حين خبا نور الشمس لفترة.

- ظلام؟ أي ظلام؟

نظروا إليه مندهشين. لم تظلم الدنيا. هل أظلمت؟ متى؟

- في حوالي الساعة السادسة؟

- هراء. لم يرَ أحد شيئاً كهذا.

نظر إليهم، غير مصدق، الواحد تلو الآخر، وكان مرتبكاً.

أكدوا له جميعاً أنهم لم يشاهدوا إظلاماً، كما لم يشاهد أحد في أورشليم كلها هذا الإظلام. أتراه، ظن، حقاً، أن الدنيا أظلمت؟ وفي وسط النهار! أمرٌ عجيبٌ. لكن، إن كان ظن هذا، فقد يعود السبب إلى عيب في عينيه بعد أن أطبقت عليه الزنزانة زمناً طويلاً. أجل. ربما كان هذا هو السبب. وقالت المرأة السمينة إن ذلك كان السبب، طبعاً، فعيناه لم تألفا الضوء، وقد بهر الضوء عينيه فترة. ولا غرابة في ذلك.

نظر إليهم متشكّكاً - ثم بدا مستريحاً على نحوٍ ما. عدل من جلسته قليلاً، ومد يده إلى الكأس الكبيرة، وشرب جرعة وافية. وبدلاً من أن يعيد الكأس الكبيرة إلى الطاولة، ظلّ ممسكاً بها، راغباً في مزيدٍ من الخمر. صبوا له، في الحال، وشربوا جميعاً، وبدا واضحاً أنه أخذ يستمتع بالخمر، على نحو آخر. شرب كما كان يفعل عادة، حين يقدم له الشراب، ولاحظوا أن الشراب جعله في مزاج أفضل. لم يسرف في الكلام، لكنه حدثهم عن أحواله في السجن. نعم. كان وقتاً لعيناً، بالطبع. فلا غرابة في أن يكون عقله على غير ما يرام. لكن، أن تفكر بإطلاق سراحك، إيه! ليس الأمر سهلاً بعد أن وقعت بين مخالبهم. أي حظٍ. إيه؟ أولاً كان ينتظر صلبه بعد عيد الفصح مباشرة، حين يطلقون، عادةً، سراح سجين ما. ثم أن يكون هو ذلك السجين من بين كل الناس! أي حظٍ جهنمي! هو أيضاً يرى ذلك. وعندما دفعوه، وربتوا على ظهره، وتكأكؤوا عليه بأنفاسهم الساخنة، ابتسم، وشرب معهم، الواحد تلو الآخر. وشرع يلين، وقد دب دبيب الخمرة في رأسه، وصار أكثر حيوية، وخفف من وطأة ملبسه عليه، بسبب الحرّ، واقتعد الأرض، مرتاحاً،

كالآخرين. كان جلياً أنه يمتّع نفسه. بل إنه طوّق بذراعه، المرأة الأقرب منه، وجذبها إليه. ضحكت وتعلقت برقبته. لكن المرأة السمينة انتزعته منها، وقالت إن حبيبها، هو في خير أحواله الآن، وسوف يكون أفضل أيضاً بعد ذلك السجن الرهيب. كما أنه لن يعود فيتخيل أشياء مثل الظلام السخيف، لا. لا. لا - جذبته إليها، وأصدرت أصوات تقبيل بشفتين مطوطتين، ممسدةً ظاهر رقبته بأصابعها السمينة، ومداعبة لحيته الحمراء. سُرُّوا جميعاً بما طرأ عليه من تغير، وبعودته إلى حالته الطبيعية، مثل ما كان، حين يعتدل مزاجه. وهكذا أطلقوا العنان لأنفسهم. شربوا وهرفوا واتفقوا على كل شيء، واستمتعوا بوقت الصحبة الجميل، متمددين، متعتعين. الرجال الذين لم يذوقوا الخمر، أو يروا امرأة، لعدة أشهر، يغتنمون وقتهم الآن؛ وسرعان ما سيعودون إلى الجبال، لم يتبق لديهم طويل وقت - فليستمتعوا، حقاً، بأنهم في أورشليم، وليحتفلوا بإطلاق باراباس! سكروا بالخمرة القوية الحامضة، وتمتعوا مع النساء كلهن باستثناء السمينة. جذبوهن الواحدة بعد الأخرى، خلف ستارة في الداخل، ليعودوا محتقنين لاهثين إلى مزيد من الخمرة والضجيج. فعلوا كل شيء، بخشونة، كما تعودوا.

ظلوا عاكفين على هذا حتى شرع الظلام يهبط. نهض الرجلان وقالا إن رحيلهما أزف. رميا جلود الماعز على أكتافهما وأخفيا أسلحتهما تحتها، قالا وداعاً، وانسلا إلى الشارع، حيث الظلام يكاد يطبق. وسرعان ما غادرت النسوة الثلاث، المكان، فتمددن خلف الستارة، مرهقات، ثم غططن في نوم عميق. حين ظلت المرأة السمينة وحدها مع باراباس سألته إن كان آن الأوان ليتمتعا معاً، وإن كان بحاجة إلى هذا

بعـد الوقت الصعب الذي أمضـاه، وسوء المعـاملة الذي عـاناه. هي، من جانبها، معجبة جداً برجل قضى في السجن زمناً، وكاد يصلب. صعدت به إلى السطح، حيث كـانت ظلّة صغيرة من السعف للقيظ. تمدّدا، وداعبته قليلاً، فصار في غاية الاهتياج، يوغل في جسدها السمين كأنه لايريد مغادرته. انقضى منتصف الليل، وهما لا يدريان بما حولهما. وأخيراً، بعد أن انهدّا تماماً، انقلبت إلى جنبها، ونامت فوراً. ظلَّ مستيقظاً قرب جسدها العرقان، ينظر إلى سقف الظلّة. فكر برجل الصليب الأوسط، وبما حدث على تلّة الإعدام. ثم أخذ يتساءل عن الإظلام، وعما إذا كان وقع فعلاً. أتراه مجرّد خيالاتٍ كما قالوا؟ أم تراه أمراً حدث في الجلجلة فقط، ولم يدرِ به الناس في المدينة؟ هناك، على أي حال، كان الظلام، وكان الجنود خائفين، وهكذا - أم أنه تخيل ذلك أيضاً؟ أيمكن أنه تخيل هذا كله؟ لا، ليس باستطاعته الفهم، ولا يعرف للأمر سبيلاً...

فكر به ثانيةً، بالرجل الذي على الصليب. تمدَّد، وعيناه مفتوحتان، والنوم ممتنع، وجسدها الوافي إلى جنبه. من خلل السعف اليابس لسقف الظلة كان يرى السماء - إنها السماء وإن كانت بلا نجوم. ليس سوى الظلام.

فالظلامُ مطْبق الآن، على الجُلجُلة، وعلى كلِّ مكانٍ.

-٣-

وفي اليـوم التـالي تجـوّل باراباس في المدينة، والتـقى عـدداً من معارفه، سواء فيهم الصديق والعدو. استغرب معظمهم لرؤيته، وأجفل واحد أو اثنان كمن رأى شبحاً. أثار هذا شعوراً بالقرف لديه. ألم يعرفوا أنه أطلق؟ متى يدركون أنه لم يكن ذلك الذي صُلب؟

الشـمس لاهبةٌ، وعليـه أن يبذل جهداً خارقاً كي تألف عيناه الوهج. ربما طرأ عليـهما، عيبٌ، فعلاً، في فـترة سجنه. فضّل، على أي حال، لزومَ الظل. وعندما اجتاز ممر الأعمدة في الشارع الصاعد إلى الهيكل، دخل، وجلس تحت الأروقة كي ترتاح عيناه قليلاً. ارتاح هو أيضاً.

رجل أو اثنان كانوا جلسوا، منذ الآن، جاثمين على امتداد الجدار. كانوا يتحدثون خفيضاً ويبدو أنهم استنكروا وصوله، رامقين إياه بنظرات جانبية، وخافضين أصواتهم أكثر. التقط كلمةً هنا، وأخرى هناك، إلا أنه لم يخرج من هذا بشيء، وهل من ضير؟ إنه غير مهتم، على أي حال، بمعاملاتهم السرية. أحدهم كان في مثل سنه، أحمر اللحية أيضاً، وذا شعر أحمر طويل مضفور ومتصل باللحية. العينان زرقاوان مما يمنح مظهراً مستطلعاً بسيطاً، والوجه عريض ممتلئ. كل ما حوله عريض. ماسةٌ خامٌ حقيقيةٌ. ويظهر من يديه وملابسه أنه ذو حرفة يدوية. لم يكن باراباس مهتماً بمن يكون هذا، أو من يشبه، لكنه من النمط الذي لا

يمكن إلا أن تلحظه، مع أنه غير متميز بشيء، باستثناء عينيه الزرقاوين بالطبع.

كان الرجل الضخم في غاية الانزعاج، والحق أنهم كانوا هكذا جميعاً. جلي أنهم كانوا يتحدثون عن شخصٍ مات؛ بدا الأمر كذلك. وبين هنيهة وأخرى كانوا يطلقون حسراتٍ حرّى، بالرغم من أنهم رجال. إن كانت القضية هكذا، إن كانوا يَرْثون أحداً، فلِمَ لا يتركون النَّدَب للنساء، للنَّدابات المحترفات؟

بغتةً سمع باراباس أن الرجل الميت، مات مصلوباً، وأن صلبه حدث أمس.

أمس؟...

أرهف أذنيه ليسمع أكثر، لكنهم خفضوا من أصواتهم، ثانيةً، فلم يظفر بشيء.

مَنْ ذاك الذي كانوا يتحدثون عنه؟

في الشارع، كان الناس يسيرون، لهذا كان مستحيلاً أن يسمع كلمةً. وعندما هدأت الجلبة، قليلاً أو كثيراً، تبين له أنهم كانوا يتحدثون كما ظنَّ عنه - هو. هو... من هو؟

غريبُ الأمرُ... كان يفكر به، قبيل هنيهةٍ. حدث أنه اجتاز ممر الأروقة المؤدي إلى الفناء، فتذكره. وعندما مرَّ بالموضع الذي لم يستطع فيه الرجل، حمل الصليب، تذكّره أيضاً. ثم، هاهم أولاء يجلسون متحدثين عن الرجل نفسه... غريب. ما شأنهم به؟ ولماذا يهمسون طوال الوقت؟ الرجل الضخم، ذو الشعر الأحمر، كان الوحيد الذي يسمع كلامه أحياناً؛ يبدو أن بنيته غير مناسبة للهمس.

أكانوا يقولون شيئاً عن... عن الظلام! عن أن الدنيا أظلمت حين مات!.

أنصت متوتراً، متلهفاً إلى حدّ ربما انتبهوا إليه. لقد صمتوا فجأة صمتاً مطبقاً، بدون أن تندَّ عنهم كلمة واحدة لوقت طويل، واكتفوا بالجلوس والنظر إليه من طرف العين. ثم تهامسوا بشيء لم يلتقطه. وبعد حين استأذنوا من الرجل الضخم ومضوا. كانوا أربعة، وليس بينهم مَنْ استراح هو إلى مرآه.

خُلِّفَ باراباس، وحده، جالساً مع الرجل الضخم. كانت لديه رغبة ما في التحدّث معه، لكنه لم يعرف كيف يبدأ. الرجل جالس هناك، يزم شفتيه، ويهزّ بين حين وآخر، رأسه الكبير. وكما يفعل الناس البسطاء كان يعبر عن متاعبه تعبيراً جسدياً. أخيراً، سأله باراباس، بصراحة، عمّا يقلقه. نظر إلى أعلى، حائراً، بعينيه الزرقاوين الواسعتين، ولم يجب. لكنه، بعد أن أنعم النظر في الشخص الغريب لحظةً، سأل إن كان باراباس من أورشليم. لا. ليس منها - لكن لهجتك تقول إنك من أورشليم؟ أجاب باراباس إن بيته ليس جدّ بعيد - إنه في الجبال ناحية الشرق. لابد أن الرجل اطمأن أكثر. فهو لم يثق بأهل أورشليم، وليس في الأمر غرابةٌ، إذ أنه متأكد من أن معظمهم لصوص وأوغاد. ابتسم باراباس ووافقه تمام الموافقة. وماذا عنه؟ عنه هو؟ آه... إن بيته بعيد جداً من هنا. حاولت عيناه الطفوليتان التعبير عن مقدار البعد، وأسرَّ إلى باراباس أنه يريد حقاً أن يكون في مُنتَسَبِه، لا في أورشليم، ولا في أي مكان آخر من العالم. لكنه لايعتقد أنه سوف يعود يوماً إلى أرضه الأولى ويعيش ويموت هناك كما تخيَّل يوماً. سأله باراباس: لِمَ؟ مَنْ

يمنعه؟ أليس كل امرئ سيِّد نفسه؟

رد الرجل الضخم، متأملاً: أوه، لا. الأمرُ ليس هكذا.

لم يستطع باراباس أن يكتم سؤالاً: إذاً، ماذا يفعل هنا؟

الرجل الضخم لم يجب فوراً، ثم قال بدون تأكيد إن ذلك كان بسبب معلِّمه.

-المعلم؟

- نعم. ألم يسمع بالمعلم؟

- لا.

- أوه. بالذي صلب أمس على تل الجلجلة؟

- صُلِبَ؟ لا. هو لم يسمع. لماذا؟

- لأنه كان مقدَّراً لهذا الأمر أن يقع.

- مقدّر؟ أكان مقدَّراً له أن يصلب؟

- نعم، حقاً. ورد هذا في الكتاب، كما أن المعلم نفسه تنبأ به.

- أفعل؟ وورد الأمر هكذا في الكتاب؟ حسناً، إنه شخصياً لم يكن ذا علاقة جيدة بالكتاب ليعرف ذلك.

- ولا أنا. لكن الأمر هكذا.

لم يشك باراباس في هذا. لكن، كيف كان على معلمه أن يصلب، وما مغزى ذلك، على أي حال؟ الأمر غريب كله.

- نعم... هذا ما اعتقده. لست أرى سبباً لوجوب موته، وبتلك الطريقة الرهيبة. لكن، كان ينبغي أن يحدث ذلك مثل ما تنبأ. يجب أن يقع كل ما هو مقدر. وأضاف الرجل وهو يحني رأسه الكبير، لقد اعتاد أن يذكر هذا عدة مرات، فعليه أن يتعذب ويموت من أجلنا.

نظر باراباس إليه.

– يموت من أجلنا؟

– نعم، بدلاً منا. يتعـذَّب ويموت، بريئـاً، من أجلنا. إذ عليك أن تعترف بأننا نحن الخطاة، لا هو.

جلس باراباس، ينظر إلى الشارع، ولم يسأل، إلى حين، أي سؤال.

قال الرجل الآخر يحدِّث نفسه: الآن صار فهم ما قصد، أسهل.

استفسر باراباس: أعرفته جيداً؟

– نعم. حقاً. عرفته حقاً. كنت معه منذ اللحظة الأولى لبدئه بيننا.

– أوه. أجاء من تلك الناحية، مثلك؟

– ومذاك كنت معه، طوال الوقت، أنى ذهب.

– لماذا؟

– لماذا؟ أي سؤال؟ من السهل القول إنك لا تعرفه.

– ماذا تعني؟

– حسناً. إن لديه قوةً على المرء. قوةً مرموقةً. يكفي أن يقول للشخص:

اتبعني! فيتبعه الشخص. لايمكن فعل غير هذا. هكذا كانت قوته. ولو كنت عرفته لجرَّبتَ هذا، ولكنت تبعتَهُ، أيضاً، ببساطة.

جلس باراباس، لحظةً، صامتاً. ثم قال:

– نعم. يجب أن يكون إنساناً خارقاً، إن كان كل ما قلته حقاً. لكن المؤكد أن حقيقة أنه صلب دلت على أنه لم يكن ذا قوة خاصة؟

– أوه، لا. أنت مخطئ هنا. أنا أيضاً ظننت هذا في البداية – وهذا هو الفظيع. أن أكون ظننت ذاك الظن للحظة! لكنني أعتقد الآن أنني

أفهم معنى موته المشين، الآن بعد أن فكرت ملياً، وتحدثت إلى الآخرين ذوي المعرفة الأكثر بالكتاب. الأمر هو هكذا، يجب أن يعاني ذلك كله، وإن كان بريئاً، بل حتى أن يهبط إلى الجحيم من أجلنا. لكنه سوف يعود ويُظهرُ مجدَه.

سيقوم ثانيةً من الموت! نحن متأكدون تماماً من هذا.

- يقوم ثانيةً من الموت! أي هراء!

- ليس هراءً. الحق أنه سيقوم. وكثيرون يعتقدون حتى أن هذا سيكون صباحَ غدٍ، فهو اليوم الثالث. يفترض أنه قال إنه سيظلّ في الجحيم ثلاثة أيام. وإن لم أسمع أنا ذلك البتة. لكن هذا المفترض أنه قاله. وغداً، مع شروق الشمس...

باراباس هزَّ كتفيه غير مبالٍ.

- ألا تعتقد ذلك؟

- لا.

- لا، لا... كيف تستطيع؟... أنت الذي لم تعرفه قط. لكن كثيرين منا يؤمنون بذلك. ولِمَ لا يقوم ثانيةً، وهو مَنْ أحيا الكثيرين من الموت؟

- أحيا الموتى؟ لم يفعل ذلك بتاتاً!

- فعل ذلك حقاً. رأيته رؤية عينيّ.

- أحقٌ ذلك؟

- حقٌ، طبعاً. هكذا له القوة. القوة على فعل أي شيء، شرط أن يريد هو ذلك. لو أنه استخدم تلك القوة لصالحه، لكنه لم يفعل ذلك البتة. ولماذا ترك نفسه يُصلب إن كانت لديه تلك القوة...؟ نعم، نعم،

أنا أعرف. ليس سهلاً فهم هذا. أؤكد لك. أنا امرؤ بسيط، كما ترى، ليس سهلاً فهم هذا كله، تأكّد من ذلك.

– ألست متأكداً من أنه سيقوم ثانيةً؟

– بلى، بلى، طبعاً أنا متأكد. أنا واثق تماماً بصحة ما يقولون. واثقٌ تماماً من أن المعلم سوف يعود، ويكشف نفسه لنا بكل قوته ومجده. أنا جدّ متأكدٍ من ذاك – وهم يعرفون الكتاب خيراً مني بكثير. ستكون لحظةً عظمى. بل قالوا إن العهد الجديد سيبدأ آنذاك، العهد السعيد أن يتولى ابن الإنسان أمرَ ملكوته.

– ابن الإنسان؟

– نعم. هكذا سمّى نفسه.

– ابن الإنسان؟

– نعم. هكذا قال. لكن بعضهم يعتقد... لا، أنا لا أستطيع قولها.

اقترب باراباس منه.

– ماذا يعتقدون؟

– يعتقدون... بأنه ابن الله.

– ابن الله!

– نعم... لكن المؤكد أن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقةً، إنه كافٍ لإخافة المرء.

أنا أفضِّل أن يعود كمن كان.

باراباس كان مستثاراً جداً.

انفجر:

– كيف يتكلمون هكذا؟ ابن الله! ابن الله يُصلب! ألست ترى هذا مستحيلاً؟

– قلت إن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقةً. وأكرِّر هذا القولَ، بكل سرورٍ.

– أي مجانين هؤلاء الذين يؤمنون بهذا؟

الندبة التي تحت عين باراباس صارت داكنة الحمرة، كعهدها حين تستحرُّ الأمور. ابن الله! طبعاً لم يكن! أتتخيل ابن الله يهبط على الأرض! ويمضي مطوِّفاً، واعظاً، في ريف بلادك!

– أوه.. لِمَ لا؟ ممكن. هناك كما في أي مكان آخر. إنه موضع متواضع من العالم، أكيداً، لكن كان عليه أن يبدأ في موضع ما.

بدا الرجل الضخم في غاية الإخلاص حتى أن باراباس ابتسم، لكنه كان متأثراً أيضاً غاية التأثر. وظلَّ طوال الوقت يجذب ويطوي عباءته المرعز كما لو أنها انزلقت عن إحدى كتفيه، مع أنها لم تنزلق.

قال الرجل الآخر: والعجائب التي وقعت حين موته، ألم تفكر بها؟

– أي عجائب؟

– ألا تعلم أن الدنيا أظلمت حين مات؟

نظر باراباس في البعيد، وفرك عينيه لحظة.

– وأن الأرض اهتزت، وانشق تل الجلجلة في موضع الصليب.

– لا شيء من هذا، بالتأكيد! أنت اختلقت هذا الآن! كيف تعرف أن التل انشق؟ أكنت هناك؟

طرأ على الرجل الضخم تبدّل مفاجئ. نظر إلى باراباس نظرةَ غير الواثق، ثم أطرق برأسه.

- لا، لا، أنا لا أعرف شيئاً. وتمتم: لا أستطيع أن أشهد.

وظلَّ فترةً طويلةً صامتاً في جلسته، متأوهاً تأوّهاً عميقاً.

أخيراً، وضع يده على ذراع باراباس، وقال:

- تعرف... لم أكن مع معلّمي حين تعذب ثم مات. كنت ولّيتُ على عقبيَّ. خذلتُه وهربتُ. وقبل هذا كنت أنكرته. وهذا أسوأ ما في الأمر - أنني أنكرته. كيف يغفر لي، إن عاد؟ ماذا سأقول؟ بِمَ أجيب لو سألني؟ أخفى وجهه الكبير بين كفيه، وصار ينود.

- كيف استطعت أن آتي فعلاً كهذا؟ كيف بإمكان أحد أن يأتي بمثل هذا؟..

اغرورقت العينان الزرقاوان الواسعتان بالدمع، حين رفع رأسه أخيراً ونظر إلى الرجل الآخر.

- أنت سألتني عما يقلقني. الآن أنت تعرف. الآن أنت تعرف أي امرئٍ أنا. وسيدي ومعلّمي يعرف أكثر. أنا إنسان تعيس بائس - أتظنه يغفر لي؟

أجاب باراباس بأنه يظن ذلك. الحق أنه لم يكن مهتماً بما أخبره الرجل الآخر، لكنه قالها على أي حال، من ناحية الموافقة، وكذلك من ناحية أنه شعر بالود إزاء هذا الشخص الجالس هناك يتهم نفسه مثل أي مجرم، مع أنه لم يرتكب شيئاً. ترى، مَنْ لم يخذل أحداً بصورةٍ أو بأخرى؟

أمسك الرجل بيده، وظلّ يشدُّ عليها بقوةٍ

وردّد بصوتٍ ثخين: أتعتقد هذا؟ أتعتقد هذا؟

في هذه اللحظة مرَّ جمع من الرجال، في الشارع. وعندما لمحوا

الرجل الضخم ذا الشعر الأحمر، ورأوا لمن يجلس متحدثاً، ممسكاً بيده، فزوا غير مصدقين عيونهم. اندفعوا إلى أمام، ومع أنهم عاملوا الرجل ذا الملابس الرثة باحترامٍ غريبٍ، إلا أنهم انفجروا قائلين:

- ألا تعرف مَنْ هذا الرجل؟

أجابهم بكل صدق:

- لا، لكنه رجلٌ طيب القلب، وقد تحدثنا حديثاً طيباً.

- ألا تعرف أن المعلم صلب بدلاً منه؟

أطلق الرجل الضخم يد باراباس، ونظر في وجوه الآخرين، ممتعضاً. القادمون الجدد كشفوا عن مشاعرهم بصورة أكثر وضوحاً، لاهثين من فرط الهياج.

نهض باراباس على قدميه، وهو يقف الآن وقد أشاح بوجهه، فلم يعد يُرى.

قالوا له بكل عنفٍ: اذهب من هنا، أيها الشرير!

لف باراباس عباءته حوله، وانحدر إلى الشارع وحيداً، بدون أن يلتفت وراءه.

-٤-

الفتاة مشرومة الشفة كانت تعاني من الأرق. إنها متمددة تنظر إلى السماء مفكرةً بما سوف يظهر في الحال. لا. هي لم ترد أن تنام. أرادت أن تظل مستيقظةً هذه الليلة، تراقب.

كانت راقدة على عيدان وقش جمعتها في حفرة خارج بوابة الروث، وكانت تسمع حولها، المرضى، يئنون ويتقلّبون في نومهم، وتسمع رنين أجراس المجذوم الذي كان يستفيق أحياناً ويتمشى بسبب آلامه. الرائحة المنتنة لأكوام القمامة ملأت الوادي كله، وجعلت التنفسَ صعباً، لكنها اعتادت الأمرَ، فلم تعد تعبأ به. لا أحد هنا يعبأ به.

غداً، مع شروق الشمس... غداً، مع شروق الشمس...

أيّ فكرةٍ غريبةٍ - سرعان ما يشفى المرضى، ويشبع الجوعى.

يكاد الأمر لايصدق. كيف سيحدث؟ لكن السماوات ستفتح أبوابها، وتنزل الملائكة ليطعموهم جميعاً - في الأقل، الفقراء جميعاً.

لاشك في أن الأغنياء سيظلّون في بيوتهم يأكلون، لكن الفقراء، كل أولئك الجياع حقاً، سوف تقدم لهم الملائكة الطعام، وهنا عند بوابة الروث سوف تُمدُّ الأخاوين على الأرض، أخاوين من كتان أبيض، ولسوف يوضع عليها الطعام ألواناً، وسوف يجلس الجميع ليأكلوا. والحق

أن تخيل هذا ليس عسيراً لو فكر المرء بأن كل شيء سيكون مختلفاً عما عليه الحال الآن. لاشيء سيشبه أي شيء عُرِف أو جُرِّب من قبل.

هي قد ترتدي ثياباً أخرى، مَنْ يدري... قد تكون الثياب بيضاً. أو تنورة زرقاء؟ سيكون كل شيء مختلفاً لأن ابن الله قام من الموت، فأطل فجر العهد الجديد.

إنها مستلقيةٌ تفكِّر بهذا كلِّه، وبالطريقة التي سيقع فيها.

غداً، مع شروق الشمس... غداً، مع شروق الشمس...

كانت مبتهجة لأنها أُخبرت بهذا.

سمعت أجراس المجذوم تقترب. ميَّزتها؛ عادةً يشقّ طريقه إلى هنا ليلاً، مع أن هذا ممنوع؛ إذ على المجذومين أن يظلوا في منعزلهم بباطن الوادي، لكنه الآن يخاطر في الليل. كأنه يُنشد صحبة البشر، هذا هو السبب مثل ما قال مرة. رأته يتلمس طريقه بين النائمين، في ضوء النجوم.

مملكة الموتى... كيف الحال هناك؟ قالوا إنه يَطّوَّف الآن في مملكة الموتى... ما وصفها؟ لا، ليست لديها أي فكرة...

أصدر الأعمى العجوز أنيناً في نومه. وأبعد قليلاً كان شاب هزيل يلهث، لهاثاً مسموعاً على الدوام. قربها تتمدد المرأة الجليلية التي ترتعش ذراعها لأنها مسكونة بروح أحدهم. كثيرون حولها يعتقدون أنهم سيشفون بطين النبع، وثمة تعساء يقتاتون القمامة العالية. لكن لن ينبش أحد، غداً. إنهم يتمددون متقلّبين في رقادهم، لكنها لم تعد حزينةً عليهم.

قد يغدو الماء طاهراً، آن تلمسه أنفاس ملاك؟ ولسوف يبرؤون حقاً

إن انغمسوا فيه؟ قد يشفى حتى المجذومون؟ لكن، أيسمح لهم بالنزول إلى النبع؟ هل ينزلون فعلاً؟ لا أحد يعرف كيف ستكون الأمور... لا، إن المرءَ لايعرف إلا القليل...

قد لا يحدث شيء للنبع، وقد لا يهتم أحد به. ربما طفا الجيش الملائكي على امتداد وادي جهنم، وغمر الأرض كلها، كانساً المرض والأسى والخيبة بأجنحته!

كانت مستلقيةً تفكر بأن الأمور ستجري على هذا المنوال.

ثم فكرت بذلك الحين الذي رأت فيه ابن الله. وكم كان رفيقاً بها. لم يرفق بها أحد مثله. ربما سألته أن يشفيها من عيبها، لكنها لم تُرِدْ. سيكون سهلاً عليه أن يفعل ذلك، غير أنها لم تسأله. لقد ساعد أولئك المحتاجين حقاً إلى المساعدة، فعاله كانت فعالاً عظيمة. وهي لم تشأ أن تزعجه بما تَفُهَ.

لكن كان عجيباً، جدّ عجيبٍ، ما قاله لها وهي راكعة على التراب جنب الطريق، حين استدار، ورجع إليها.

سألها: اتنتظرين أنت أيضاً، معجزات مني؟

– لا، أيها السيد، أنا لا أنتظر. فقط شاهدتك وأنت تمرُّ.

حينها، نظر إليها نظرةً ملأى بالرقة، لكنها مفعمة بالأسى أيضاً، وداعب خدها، ولمس فمها بدون أن يحدث شيئاً. ثم قال لها: ستشهدين لي.

غريب! ماذا أراد؟ ستشهدين لي؟ هي؟ أمرٌ لا يصدَّق. كيف تستطيع؟

لم يجد أي صعوبة في فهم ما قالت، كما يجد الجميع، لقد فهمها

على الفور. لكن لا غرابة في هذا، فهو ابن الله.

تعاورتها الفِكَرُ كلها، وهي مستلقية هناك.

تعبير عينيه وهو يحدثها، ورائحة يده إذ لمس فمها... النجوم تتلألأ منعكسة في عينيها المفتوحتين على سعتهما، وفكرت، كم هو غريب أن في السماء، المزيد والمزيد من النجوم... لكن ما هي النجوم؟ إنها لم تعرف. الله خلق النجوم طبعاً. لكن ما هي؟... في الصحراء نجوم كثيرة، وفي أعالي الجبال... في جبال جلجال... لكن ليست تلك الليلة، لا، لا، ليست تلك الليلة... ثم فكرت بذلك المنزل بين الأرزتين... أمها واقفة في مدخل المنزل تتابعها بالنظر، حين هبطت من التل وقد حلت عليها اللعنة... آه، نعم، طبيعياً كان أن يطردوها، فترغم على العيش مثل الوحوش في وِجار... تذكرت كم كانت الحقول خضراً ذلك الربيع، وأمها واقفة تتابعها بالنظر تماماً داخل المدخل المعتم لتتجنب أن يراها الرجلُ الذي نطق باللعنة...

لكن لا يهمّ هذا الآن. لاشيء يهمّ الآن.

جلس الأعمى، وأنصت، فقد استيقظ وسمع رنين أجراس المجذوم.

صاح به وهو يهزُّ قبضته في الظلام: اذهب! ابتعد! ماذا تفعل هنا؟ تلاشى صوت الأجراس في الظلام، وتمدَّد العجوز ثانيةً، وهو يغمغمُ، ويده فوق عينيه الفارغتين.

هل الأطفال الموتى، هم أيضاً في مملكة الموتى؟ نعم. لكن بالتأكيد، ليسوا الذين يموتون قبل أن يغادروا الرحم؟ هذا غير ممكن، أكيداً؟ هم لا يستطيعون معاناة العذاب هناك، لايمكن أن يحدث ذلك أكيداً؟ مع أنها غير متيقنة. إنها غير متأكدة من أي شيء... اللعنة على ثمرة

حقويك...

أمَّا الآن، مع فجر العهد الجديد، فقد تنتفي اللعنات من تلقاء ذاتها؟ قد تكون... مع أن أحداً غير قادر على التأكد...

اللعنة على ثمرة حقويك...

ارتجفت، كأنها ارتجفت من البرد. كم هي متلهفة على الصباح! ألا يَطْلعَ الآن؟ لقد تمددت هنا منذ أمد طويل... ألم يقارب الليل منتهاه؟ بلى، النجوم فوقها ليست كما كانت، والهلال هبط منذ أمد خلف التلال. جرى تبديل الحرس للمرة الأخيرة - ثلاث مراتٍ، الآن، رأت المشاعل متقدةً على أسوار المدينة. نعم، لابدَّ لليل من آخر. الليل الأخير...

نجم الصباح يعلو، الآن، جبل الزيتون! تبينته رأساً، كان جدّ كبير وواضح، كان أكبر من سواه. لم تشهده، من قبل، يسطع هكذا. أرخت يديها على صدرها الغائر، واستلقت تنظر إليه، في الأعالي، فترةً، بعينين محترقتين.

ثم، نهضت خفيفةً، وأسرعت، مبتعدةً في الظلام.

كان يجثم خلف دغل الطَّرْفاء على الجانب الآخر من الطريق، مواجهاً الضريح. وحين يهلُّ النور، يصبح قادراً على رؤية ما عبر الطريق. هنا موضع حسن للرؤية. آه لو طلعت الشمس!

صحيح، أنه يعرف أن الميت لن يقوم من موته، لكنه كان يريد أن يرى هذا رؤية العين، كي يتأكد. ولهذا استيقظ جدّ مبكرٍ، قبل شروق الشمس بوقت طويل، وكمن ينتظر خلف دغل الطَّرفاء. على أي حال، فكر مندهشاً من نفسه، لأنه فعل هذا، ولأنه هنا. لِمَ يرهق رأسَهُ بهذا

الشأن؟ ما علاقةُ الأمرِ به؟

توقع أن يرى عديدين هنا، ليشهدوا المعجزةَ الكبرى. لهذا أخفى نفسه كي لا يروه. لكن من الواضح أن لا أحد هنا سواه. أمرٌ عجيبٌ.

أجل، الآن بمقدوره أن يتبين شخصاً راكعاً، أمامه بقليل في الطريق نفسه. من تراه يكون، وكيف حدث ذلك؟ لم يسمع أحداً يجيء. لكأنه امرأة. لم يكن ممكناً تمييز الشخص الراكع هناك على التراب الشبيه.

الآن، شرع النورُ ينتشر، وسرعان ما تلقي الشمس بأشعتها على الصخر الذي قدَّ منه الضريح. حدث كل شيء بسرعةٍ عجز عن متابعتها - الآن، حين هو بأشدِّ الحاجة إلى كل انتباهه! كان الضريح فارغاً! الحجر زحزح، واللحد المحفور في الصخر كان فارغاً!

في البداية، دهش لكونه جالساً هناك يحدق في الفتحة التي رآهم عندها، بأمِّ عينيه، يُسْجون الرجل المصلوب، وفي الحجر الضخم الذي رآهم يدحرجونه أمامها. لكنه أدرك آنذاك حقيقة الأمر. كان الحجر زحزح قبل مجيئه. ومذّاك كان الضريح فارغاً. لم يصعب عليه أن يخمن من زحزح الحجر ومضى بالرجل الميت. الحواريون كانوا فعلوا ذلك ليلاً. تحت جنح الظلام حملوا معلمهم المعبود المحبوب حتى يغدو بإمكانهم القول في ما بعد، إنه قام من الموت، كما تنبأ. كان إدراك الأمر يسيراً.

لهذا، لم يكن لهم أثر هذا الصباح، في شروق الشمس، حين الموعد المضروب للمعجزة. الآن هم مختفون!

زحف باراباس من مكمنه، ومضى يتفحص الضريح بدقة. عندما مرَّ بالشخص الراكع في الطريق، نظر، فرأى، مندهشاً، الفتاة مشرومة الشفة. توقَّفَ - ظلَّ واقفاً، ينظر إليها من علٍ. وجهها الواهن المرمدّ

متجه وجهة الضريح الفارغ، وعيناها المنتشيتان لا تريان سواه. شفتاها منفرجتان لكنها لا تكاد تتنفس؛ الندبة المشوّهة في شفتها العليا بيضاء تماماً. هي لم تره.

داهمه إحساس خاص، يكاد يكون إحساساً بالخجل، لرؤيتها هكذا. وتذكر شيئاً، شيئاً لم يكن يريد أن يتذكره - كيف كان وجهها آنذاك. تماماً كما أحس هو بالخجل، آنذاك... نفض عن نفسه الأمر، متحرراً.

أخيراً، لَحَظَتْهُ. هي أيضاً بدت مندهشةً لرؤيته هو، هناك. ولا عجب في ذلك، فهو أيضاً مندهش لوجوده ثمة. ما علاقته بالأمر؟

ودّ باراباس لو تظاهر بأنه كان يتمشى، فقط، على الطريق، وبأنه مرّ بمحض المصادفة، وليس لديه أي فكرة عن المكان، وعما إذا كان فيه ضريح. أبإمكانه التظاهر؟ ربما كان ذلك بعيدَ المنال، وقد لا تصدقه، لكنه قال على أي حال: - لماذا أنتِ هنا، راكعة هكذا؟

الفتاة مشرومة الشفة لم تنظر إلى أعلى ولم تتحرك، ظلّت راكعةً، شأنها من قبل، وعيناها متجهتان ناحية فتحة الصخرة. وكاد يسمعها تهمس لنفسها:

- ابن الله قام...

داهمه إحساسٌ غريب لسماعه هذا. ضد إرادته أحسَّ بشيءٍ - لم يستطع تسميته. وقف هناك برهةً، لا يعرف ما يقول أو يفعل. ثم مضى إلى الضريح، مثل ما كان فكر أن يفعل، وتأكّد من أنه فارغ - لكنه كان يعرف ذلك، وهذا لايعني شيئاً من قليل أو كثير. ثم عاد إلى حيث كانت تركع. كان وجهها مفعماً بجلال وانتشاء إلى حد شعر فيه بالحزن عليها. ليس من حقيقة في كل هذا الذي أسعدها. كان بمقدوره أن يحكي

لها عن كل هذا البعث - لكن، ألم يلحق بها ما يكفي من الأذى؟ ليس بمقدوره أن يروي لها الحقيقة. سألها، حذراً، عن رأيها في ما وقع، وكيف قام الرجل المصلوب من القبر.

صعّدت بصرها إليه، لحظةً، مندهشةً. ألم يعرف؟ ثم وصفت بصوتها الأخنّ، وبجلالٍ، وتفصيلٍ، كيف أن ملاكاً بعباءة من نار هبط مندفعاً منقضاً من السماء وقد مدَّ ذراعه مثل سنان الرمح. وغار الرمح بين الحجر والصخرة وفلَقَهُما. بدا الأمر بسيطاً، وكان كذلك بالفعل، مع أنه كان معجزةً. هذا ما حدث. ألم يره؟

باراباس ينظر إلى أسفل وقال إنه لم يرَ، وفي أعماقه كان مسروراً لأنه لم يرَ. لقد ثبت أن عينيه سليمتان الآن، وأنه لم يعد يرى أي تهاويل، بل يرى الواقع نفسه. ذلك الرجل لم تعد له قوة عليه. فهو لم يرَ أي بعث أو سواه. لكن الفتاة مشرومة الشفة لاتزال تركع هناك، عيناها تشعّان بذكرى ما رأت.

عندما وقفت، أخيراً، على قدميها، لتمضي مبتعدةً، سارا معاً، شوطاً من الطريق إلى المدينة. تحدثا قليلاً، لكنه وجد بعد افتراقهما ذاك أنها صارت تؤمن بهذا الرجل الذي سمَّته ابن الله، هذا الذي يسميه هو، الرجل الميت، وحسب. لكنه حين سألها عما دعا إليه هذا الرجل حقاً، ترددت في الجواب. أشاحت ببصرها عنه وتجنبت نظرته. وعندما بلغا المفترق - جليٌّ أنها كانت تريد أن تسلك الطريق المؤدية هبوطاً إلى وادي جهنم، بينما فكّر هو بالذهاب إلى بوابة داود - سألها مرة أخرى عن المبدأ الذي كان يعظ به، وبماذا تؤمن، مع أن الأمر لا يهمّه. توقفت برهةً، تنظر إلى الأرض، ثم نظرت إليه نظرةً خجلى وقالت بصوتها

الأخنّ:

- ليحببْ أحدكم الآخر.

وهكذا افترقا.

وقف باراباس، وقتاً طويلاً، يتابعها بالنظر.

-٥-

ظل باراباس يسأل نفسه عن سبب بقائه في أورشليم، وليس لديه ما يفعل فيها. إنه يظل يطوف في المدينة بلا قصد، ولا عمل. وافترض أن أصحابه في الجبال استغربوا من مكثه الطويل. لماذا بقي؟ هو نفسه لم يعرف السبب.

المرأة السمينة ظنت بقاءه بسببها، لكنها سرعان ما أدركت أن الأمر ليس كذلك. أحست بانزعاج ما، لكن الرجال، بحق السماء، لايشعرون بالامتنان حين ينالون ما يريدون طوال الوقت، وهي تركته ينام معها، وأحبت ذلك. من اللطيف أن يكون معك رجل حقيقي لوقت ما، وأن يكون لطيفاً في المداعبة. لدى باراباس ميزة أنه حتى لو لم يهتم بك فإنه لم يهتم أيضاً بأي شخصٍ آخر، وبإمكانك التأكد من ذلك. إنه لم يهتم بأحد. لم يهتم قط. ثم أنها لأمر ما - بعد ذلك تشعر أحياناً بالبؤس، وتبكي قليلاً وحدها. لكنها، بالفعل، لم تهتم بذلك أيضاً. حتى هذا قد يبدو لطيفاً. إن لديها تجربتها الكبيرة في الحب، وهي لا تزدري أي شكل من أشكاله.

لكنها عجزت عن أن تجد سبباً لتكاسله وإنفاقه الوقت في أورشليم. ترى ماذا يفعل طوال اليوم. إنه ليس من النمط الذي يمضي

وقتـه هائماً في الشوارع بلا جدوى، فهو رجل تعوّد حياةً ذات نشاط وخطر. ليس هو مَنْ ينفق الوقتَ هكذا.

لا. هو لم يكن نفسه منذ حدث ذلك الأمر - منذ كاد يُصلب. ويبدو أنه وجد صعوبةً ما في الاعتياد على حقيقة أنه لم يُصلب. فكرت هكذا مع نفسها، وأطلقت ضحكة مجلجلةً، وهي مستلقية في قيظ الهاجرة ويداها متصالبتان على بطنها الكبير.

لم يستطع باراباس، أحياناً، أن يتجنب لقاء أتباع الربّاني المصلوب. ليس بمقدور أحد القول إنه يفعل ذلك عمداً، لكن كان عدد منهم، هنا وهناك، في الشوارع وساحات الأسواق، فإن لقيَهم أحبَّ أن يتوقف ويتحدث معهم قليلاً، ويسألهم عنه، وعن المبدأ العجيب الذي لم يعرف أسّاً ولا رأساً.. ليحببْ أحدُكم الآخر؟

اتجه خارج ساحة الهيكل، والشوارع الأنيقة حولها، نحو أزقة المدينة السفلى، حيث يجلس الحرفيون في دكاكينهم، وحيث الباعة المتجولون ينادون على بضاعتهم. بين هؤلاء الناس البسطاء كان كثير من المؤمنين، أفضل من أولئك الذين التقاهم في ممر الأعمدة. عرف شيئاً من آرائهم، لكن لم يبدِ، البتة، أنه نجح في إقامة علاقة شخصية معهم، أو في فهمهم فهماً جيداً - ربما لأنهم يعبرون عن أنفسهم بطريقة حمقاء.

إنهم مقتنعون، الاقتناع كله، بأن معلمهم قد قام من الموت، وأنه سرعان ما سيعود على رأس جيشه السماوي ليؤسس مملكته. لقد قالوا كلهم الفكرة ذاتها، ولابد من أنهم علّموا ذلك. لكنهم لم يكونوا مقتنعين، بدرجة متساوية، بأنه كان ابن الله. بعضهم رأى أن كونه ذلك، أمر غريب، لأنهم، هم أنفسهم، رأوه وسمعوه، بل تحدثوا معه حول

الموضوع. وأحدهم صنع له نعلين وأخذ قياسه وكل شيء. لا. لقد صعب عليهم تصوّر ذلك. لكن كان كثيرون يرون أنه ابن الله، وأنه سوف يجلس على العرش السماوي إلى جانب الأب. لكن يجب أولاً تدمير هذا العالم الآثم المدنس. أي نمطٍ غريب من الناس كانوا؟

لاحظوا أنه لم يؤمن لحظة بما آمنوا، فكانوا يَحْذَرونه. بل كان بعضهم يشكّ فيه، وكادوا جميعاً يُظهرون بغضهم إياه. كان باراباس تعوّد هذا، لكن الغريب هذه المرة أن الأمر أثر في نفسه - وهو لم يعرف هذا من قبل. كان الناس يحيدون دوماً عن طريقه ويظهرون أن لا شأن لهم معه.

ربما كان هذا بسبب مظهره، أو بسبب جرح السكين الغائر في لحيته والذي لايعرف أحد قصةً له، أو بسبب عينيه الغائرتين اللتين لا تمكن رؤيتهما بوضوح. باراباس عارفٌ بهذا كله، لكن لا يهمه رأي الناس. هو لم يهتم به قط.

هو لم يعرف، حتى الآن، أنه اعتمل.

من جانبهم، ظلّوا، بكل طريقة، مع أنفسهم، في عقيدتهم المشتركة، حريصين على ألا يتقبلوا أحداً لا ينتسب إليهم. كانت لهم أخوّتهم، واحتفالات حبهم، حين يقتسمون الخبز كأنهم أسرة واحدة. قد يكون هذا بعضاً من مذهبهم، وقولتهم: «ليحببْ أحدكم الآخر». لكن يصعب القول إن كانوا يحبون مَنْ ليس منهم.

لم تكن لدى باراباس أدنى رغبة في المشاركة في احتفالات الحب تلك، لقد ابتعد بسبب من رأي في مثل هذا الأمر، أن يقيّد مع الآخرين بتلك الطريقة. أراد دوماً أن يكون هو نفسه حَسْبُ.

بل ادّعى أنه أراد أن يكون واحداً منهم - فقط لو استطاع أن يفهم إيمانهم جيداً. أجابوا بأنهم سيكونون سعداء، وبأنهم مبتهجون لمحاولة شرح ما بشّر به المعلم، قدر مستطاعهم، لكنهم، في الواقع، ما كانوا مسرورين. إنه العجب. هاهم أولاء يلومون أنفسهم بسبب عجزهم عن الترحيب بمحاولاته، عن كسب مؤمنٍ جديدٍ - وهو ما يزعجهم عادةً. إذاً، ما السبب؟ لكن باراباس عرف. نهض فجأة، وخطا مبتعداً، والندبة تحت عينه قرمزٌ.

يُؤْمن! كيف باستطاعته أن يؤمن بذلك الرجل الذي كان رآه معلقاً على الصليب! تخيلاتهم فقط! الأمر كله كان محض تخيُّلاتٍ منهم! لم يقم أحدٌ من الموت، لا «معلمُ» هم المعبود، ولا سواه! ثم أن باراباس لايمكن أن يلقي عليه اللوم بسبب اختيارهم! كان ذلك شغلهم! وكان بإمكانهم أن يختاروا أي شخص، لكن حدث أن المقادير جرت هكذا. ابنُ الله! كأن بمقدوره أن يكون ابن الله! ولنفترض أنه كان، فلا داعي لأن يُصلب إن لم يردْ هو ذلك. ينبغي أنه أراد ذلك بنفسه. ثمة ما هو غريبٌ ومقرفٌ - هو أراد أن يتعذب. فلو كان حقاً ابن الله، لكانت نجاته أسهل أمر في العالم. لكنه لم يرد النجاة. لقد أراد أن يتعذب ويموت بتلك الطريقة المرعبة، وألاّ ينجو. وهذا ما حدث. حصل على سبيله الخاص في ألا ينجو. وترك له، لباراباس، أن يطلق، بدلاً منه. لقد أصدر أمره: أطلقوا هذا الرجل، واصلبوني.

مع أنه، طبعاً، ليس ابن الله، كان ذلك جلياً...

استخدم قوّته أعجب استخدام. استخدمها بعدم استخدامها، وسمح للآخرين بأن يقرروا تماماً ما أرادوا، وامتنع عن التدخل، ومع هذا مضى

في سبيله الخاص، ليصلب بدلاً من باراباس.

تحدثوا عن موته من أجل «هم». ربما كان هذا. لكنه في الواقع مات من أجل باراباس، وهو ما لا ينكره أحدٌ! واقع الأمر أنه كان أقرب إليه منهم، أقرب من أيٍّ كان، كان مرتبطاً به برباط مختلف تماماً. بالرغم من أنهم لا يريدون أن تكون لهم أي علاقة به! يمكن القول إنه اختيرَ - اختيرَ لينجو من العذاب، وليُطلَق. إنه المختار حقاً، بُرئت ساحته بدلاً من ابن الله نفسه - بأمرٍ منه، لأنه هو أراد ذلك. بالرغم من أنهم لا يشكّون في شيء!

لكنه لا يهتم بـ «أخوّتهم» ولا بـ «احتفالات حبهم» ولا بـ «ليحببْ أحدكم الآخر». كان هو نفسه. وفي علاقته مع المصلوب الذي يسمّونه ابن الله كان أيضاً هو نفسه، كعهده دوماً. لم يكن قنّاً له مثل ما كانوا هم. لم يكن من أولئك الذين يتجولون متأوهين مصلّين له.

كيف يستطيع أحدٌ أن «يريدَ» العذاب، حين لا حاجة إليه، ولا هو مرغمٌ عليه؟ هذا الشيء مستعصٍ على التصديق، ومجرد التفكير فيه يجعل المرء يتقيأ. حين يفكر بالأمر، يرى أمام عينيه الجسد النحيل البائس والذراعين اللتين لا تكادان تتدليان لفرط وهنهما، والفم المتيبس الذي لا يقوى إلا على طلب قليل من الماء. لا، إنه لم يحبب من أراد العذاب بهذه الطريقة، وعلّق نفسه على الصليب. لم يحببه إطلاقاً! لكنهم يعبدون مصلوبهم، وعذابه، وموته التعس. يعبدون الموت نفسه. إنه لرهيبٌ مقرفٌ. أنا أشطب عليهم جميعاً، هم، ومذهبهم، وذاك الذي يقولون إنهم يؤمنون به.

لا. إنه لم يحبب الموت البتة. يمقته ويود ألاّ يموت أبداً. ألهذا

السبب نجا؟ ألهذا اختير ليُطْلَق؟ لنفترض أن المصلوب كان حقاً ابن الله، إذاً هو عرف كل شيء، وكان عارفاً تماماً أن باراباس لم يرد أن يموت، لا أن يعذّب ولا أن يموت. وهكذا فعل ذلك بدلاً منه! وكل ما كان على باراباس فعله، هو أن يصعد معه إلى الجُلجُلة ويراه يُصلب. هذا كل ما طلب منه، وحتى هذا رآه صعباً، فهو يكره الموت وكل ما يتصل به.

نعم، كان هو، حقاً، من مات ابنُ الله من أجله! قيل له، هو، لا لسواه: أطلقوا هذا الرجل واصلبوني!

هكذا كان باراباس يفكر وهو يبتعد بعد أن حاول أن يكون واحداً منهم، يحث خطاه مبتعداً عن مشغل صانع الفخار في درب الفخارين، حيث كانوا يظهرون بغضهم له.

وقرر أن يمضي عنهم، بلا عودة.

لكنه في اليوم التالي لم يستطع إلا الذهاب إليهم، فسألوه عما لم يفهمه في مذهبهم، مبينين أنهم آسفون، يلومون أنفسهم إذ لم يرحبوا به الترحيب اللازم، وقالوا إنهم سعداء حين يقدمون له المعرفة المتشوّف إليها. عمَّ يريد أن يسألهم؟ ما الأمر الذي لم يفهمه؟

أوشك باراباس أن يهزَّ كتفيه، ويجيب بأن المسألة كلها لغز لا يستطيع أن يتحمَّل ضيقه. إلا أنه أشار إلى البعث مثلاً، الذي لم يفهمه. هو لم يصدق أن امرءاً قام من الموت.

مصعدين البصر من عجلات الفخّار، نظروا أولاً إليه، ثم تبادلوا النظر. وبعد أن تهامسوا، سأله كبيرهم إن كان يودّ لقاءَ شخصٍ أحياه المعلم بعد موتٍ؟ في حالة القبول، سيرتّبون الأمر، لكن حتى المساء، بعد العمل، إذ أن ذلك الشخص يعيش على مبعدة يسيرة من أورشليم.

باراباس كـان خـائفـاً. فـهـذا غـيـر مـا توقّـعـه. كـان يظن أنهم سيـجادلونـه، ويقدّمون وجهة نظرهم، لا أن يحاولوا البرهنة بهذه الطريقة الهجومية. صحيح أنه مقتنع بأن الأمر كله ليس سوى نزوة غريبة، كذبة ورعة، وإن الشخص لم يكن بالفعل قدمات. غـيـر أنه كان خائفاً. في الأقل، لم يردْ أن يقابل الشخصَ. إلا أنه عاجز عن أن يذكر هذا. عليه التظاهر بالامتنان لفرصة إقناع نفسه بقوة سيِّدهم ومعلمهم.

أمضى الوقت متجولاً في الشوارع، متعاظم الاهتياج. وحين عاد إلى مشغل الفخار، وقت الإغلاق، اصطحبه شاب عبر بوابات المدينة صاعدين إلى جبل الزيتون.

الرجل الذي يقصدانه يسكن ضواحي قرية صغيرة على منحدرات الجبل. عندما أزاح صانع الفخار الشاب، حصير القش، عن مدخل البيت، رأوه جالساً في الداخل، ذراعاه أمامه على الطاولة، وهو ينظر بثبات في الغرفة. بدا غير منتبه لوجودهما إلى أن حيَّاه الشاب بصوتٍ جليّ. التفت بطيئاً ناحية الباب وردَّ التحية بصوتٍ أجوف غريبٍ. بعد أن أعطاه الشاب رسالةً من الإخوة في درب الفخارين، وبيّن مهمته، دعيا بإيماءة يدٍ إلى الجلوس عند الطاولة.

باراباس جلس قبالته، ليتفحّص وجهه. كان هزيلاً، وبدا صلباً كالعظم. البشرة يابسة تماماً، لم يفكر باراباس قط بأن وجهاً يمكن أن يبدو هكذا، ولم يسبق له أن شاهد شيئاً موحشاً مثله. كان كالصحراء.

ردَّ الرجل على سؤال الشاب بأنه كان ميتاً تماماً، فأحياه ربانيّ الجليل، معلِّمهم. ظل في القبر أربعة أيام وليال، لكن قواه الجسدية والعقلية ظلّت كما كانت من قبل، ولم يتغير شيء فيها. ولهذا السبب

أثبت المعلم قوته ومجده وأنه كان ابن الله. تكلم ببطء ورتابة، ناظراً إلى باراباس طوال الوقت بعينيه الشاحبتين المحرومتين من البريق.

عندما أنهى كلامه! استمروا يتحدثون فترةً عن المعلم وفعاله العظيمة. لم يشترك باراباس في الحديث. نهض الشاب وتركهما ليذهب ويرى والديه اللذين يعيشان في القرية نفسها.

لم يكن باراباس يرغب في أن يترك وحيداً مع الرجل، لكنه لم يستطع أن يجد عذراً للاستئذان والمغادرة. نظر الرجل إليه نظرة ثابتة مستمرة بعينيه المعتمتين الغريبتين، غير المعبرتين إطلاقاً، وغير المثيرتين لأي اهتمام، ولكنهما، بالرغم من ذلك، جذبتا باراباس نحوه، بطريقة يصعب تفسيرها. ود باراباس لو هرب، لو خلص نفسه وهرب، إلا أنه لم يستطع.

جلس الرجل، حيناً، صامتاً. ثم استفسر من باراباس إن كان يؤمن بربّانيِّهم، الذي هو ابن الله. تردّد باراباس، ثم أجاب بالنفي، إذ شعر بأن من المعيب أن يكذب المرء أمام تلكما العينين الفارغتين، غير المعنيتين، في الأقل، بما يقوله المرء، إن صدقاً وإن كذباً. لم يتأثر الرجل. قال فقط بإيماءة من رأسه:

– لا، هناك كثيرون لايؤمنون كذلك. أمه، التي كانت هنا، أمس، لا تؤمن هي الأخرى. لكنه أحياني من الموت، لأنني سأشهد له.

قال باراباس في هذه الحالة يكون طبيعياً تماماً أن يؤمن به، وأن يظل إلى الأبد ممتناً له، بسبب المعجزة العظمى التي أتاها. قال الرجل نعم، وهو يشكره يومياً، لأنه أعاده إلى الحياة، ولأنه لم يعد ينتسب إلى مملكة الموتى.

هتف باراباس منتبهاً إلى ارتجافة خفيفة في صوته:

- مملكة الموتى؟ كيف الحال هناك؟ أنت الذي كنت ثمّة! أخبرني ما وصفها

- ما وصفها؟

قال الرجل ذلك مستفهماً. جلي أنه لم يفهم مقصد الآخر.

- نعم! ما هي؟ ما هذا الأمر الذي جربته؟

أجاب الرجل كالمستاء من عنف الآخر:

- لم أجرب شيئاً. كنت مجرد ميت. والموت لا شيء.

- لاشيء؟

- لا. ماذا يجب أن يكون؟

حدّق باراباس إليه.

- أتقصد أنك تريد مني أن أخبرك عن مملكة الموتى؟ لا أستطيع. مملكة الموتى ليست أي شيء. إنها موجودة - لكنها ليست أي شيء.

بمقدور باراباس أن يحدق إليه فقط. الوجه الموحش أخافه، إلا أنه عاجز عن تحويل عينيه بعيداً.

- لا.

قال الرجل، ناظراً عبره، بنظرته الفارغة، مملكة الموتى ليست أي شيء. لكن بالنسبة لمن كانوا هناك، لاشيء آخر هو أي شيء، من ناحية أخرى. ومضى يقول:

- غريب أن تسأل هذا السؤال. لمَ تسأل؟ إنهم لا يسألون عادة.

ثم أخبره أن الإخوة في أورشليم غالباً ما يرسلون الناس إلى هنا كي يدخلوا في الدين الجديد. وكثيرون دخلوا، فعلاً. وهو بهذه الطريقة يخدم

المعلم ويرد له بعضاً من دين عظيم - إعادته إلى الحياة. كل يوم تقريباً يأتي هذا الشاب أو سواه، بشخص، وهو يشهد ببعثه. لكن لم يتكلم البتة عن مملكة الموتى. وهي المرة الأولى التي أراد فيها شخص أن يسمع عن المملكة تلك. شرعت الغرفة تعتم. نهض الرجل وأوقد قنديل زيت معلقاً من السقف الخفيض. ثم أخرج خبزاً وملحاً وضعه على الطاولة بينهما. كسر الخبز وقدم بعضه إلى باراباس، غامساً قطعته في الملح، وداعياً باراباس أن يفعل مثله. باراباس أدّى ذلك، وإن شعر بيده ترتجف. جلسا صامتين في النور الضئيل لقنديل الزيت، يأكلان معاً.

هذا الرجل ليس ضد أن يأكل معه في احتفال حب! إنه ليس حريصاً مثل الأخوة في درب الفخارين، وهو لا يفرِّق إلا قليلاً بين رجلٍ وآخر. لكن، حين قدمت له الأصابع المعروقة الصفراء، قطعة الخبز، وكان عليه أن يأكلها، تصور فمَه ملآن بطعم جثةٍ.

على أي حال، ما معنى أكله معه هكذا؟ ما المغزى الخبيء لهذه الوجبة الغريبة؟ عندما انتهيا رافقه الرجل إلى الباب، وودعه ليذهب بسلام. غمغم باراباس بشيء، ثم استأذن مسرعاً. سار، عجلاً، في الظلام، منحدراً على سفح الجبل، والفِكَرُ تضجُّ في رأسه.

المرأة السمينة دهشت مبتهجة للعنف الذي أخذها به. لقد ضاجعها بحميّة غير قليلة هذه العشية. لم تعرف لهذا سبباً، لكن بدا لها أنه محتاج تلك الليلة، إلى أن يتشبث بشيء. وهي القادرة على منحه هذا. استلقت تحلم بأنها عادت شابةً، وبأن أحداً أحبها..

اليوم التالي تجنّب المدينة السفلى ودرب الفخارين، لكن رجلاً من مشغل الفخار صادفه في ممر أعمدة سليمان، وسأله رأساً عن أمس، أوَ

لم يكن حقاً ما قالوه؟ أجاب بأنه لا يشك في أن الرجل الذي زاره كان ميتاً ثم بعث، لكنه حسب تفكيره، لا يرى أن للمعلم حقاً في إحياء الميت. ذهل صانع الفخار، واربدّ وجهه لهذه الإهانة الموجّهة إلى السيد، لكن باراباس اكتفى بإعطائه ظهره، وتركه يمضي في سبيله.

لابد أن نبأ الزيارة شاع، ليس فقط في درب الفخارين، وإنما في دروب الزياتين والدباغين والنساجين، والآخرين جميعاً، أيضاً. فحيثما ذهب باراباس، كعادته، لحظ أن المؤمنين الذين كان يتحدث إليهم كالمعتاد، ليسوا كما كانوا من قبل. كانوا صارمين، متجهمين، ينظرون إليه، طوال الوقت، نظرات شك شزراء. لم تكن هناك حميمية بينهم، غير أنهم يظهرون الآن ارتيابهم. والواقع، أن رجلاً ضئيلاً يتسم بالحكمة جذبه، وسأله عن سبب اختلاطه معهم، وماذا يريد منهم، وعما إن كان مرسلاً من حراس الهيكل، أو حرس الحاخام الأكبر، أو ربما من السدوسيين؟ وقف باراباس عاجزاً عن النطق، ناظراً إلى الرجل الضئيل العجوز، الذي احمرّت صلعته من الغضب. لم يكن رآه من قبل، ولم يعرف من هو، سوى أنه صباغ، من الخطوط الحمر والزرق الصوف المحشورة في ثقبي أذنيه.

أدرك باراباس أنه أغضبهم وأن مشاعرهم نحوه قد تغيرت تماماً. وكان يلقى التجاهل والوجوه الصخر أنّى ذهب. بل إن بعضهم كان يلقاه بالنظر الخازر كأنه يعلمه بأنهم مصممون على اكتشاف من هو. إلا أنه تظاهر بالغفلة. لكن الواقعة وقعت ذات يوم. اندفعت كالنار المجنونة عبر كل الدروب حيث يعيش المؤمنون، وبغتةً لم يعد أحد يجهلها. إنه هو! إنه هو! هو الذي أطلق بدلاً من المعلم! بدلاً من المخلص، بدلاً من ابن

الله! إنه باراباس! إنه باراباس الطليق!

النظرات المعادية تلاحقه، البغض يلتمع من عيون متّقدة. كان جنوناً لم يهدأ حتى بعد أن اختفى عن الأنظار، كي لا يُري نفسَه ثانيةً، هناك.

- باراباس الطليق! باراباس الطليق!

-٦-

زحف داخل صَدَفته الآن، ولم يحدِّث أحداً. وهكذا، لم يعد يخرج تقريباً. إنه يكتفي بالتمدّد داخل الستارة في بيت المرأة السمينة، أو في ظلّة السطح حين يضج البيت بالصخب. مضت الأيام على هذا المنوال دون أن يشغل نفسه بشيء، حتى الطعام لم يعد يأبه له، في الأقل لم يكن ليفعل ذاك لو لم يقدَّم له الطعام، وينبَّه إليه. بدا غير مبالٍ بكل شيء. لم تستطع المرأة السمينة أن تعرف ما به، كما أنها لا تجرؤ أن تسأله عما به. الخير أن تتركه بسلام، ولا يبدو أنه في حاجة إلى هذا. لايكاد يجيب إن كلِّم، ولو أطلَّ أحدٌ حذراً داخل الستارة لرآه متمدداً محدِّقاً إلى السقف. لا. الأمرُ فوق قدرتها. أتراه جنَّ؟ فقدَ الرشدَ؟ الحالُ أكثر مما تستطيع قوله.

ثم اهتدت إلى الأمر. وذلك حين طرق سمعها أنه كان يخالط أولئك المجانين الذين يؤمنون بالشخص الذي صلب مكان باراباس! انجلى الأمر لها الآن! لا غرابة إذاً في أن يختل. هم كانوا السبب. هم بالطبع كانوا يملؤون رأسه بفِكَرِهم المجنونة. ذاك كاف لأن يصاب أي واحد بالمسِّ، فيدور وقد فقد نصف عقله مثلهم. اعتقدوا بأن المصلوب كان مخلِّصاً أو مثله، ولسوف يساعدهم بطريقة ما، ويعطيهم كل ما يطلبونه، أولَيس

هو من سيغدو الملك في أورشليم أيضاً، ويطرد الشياطين غير الملتحين؛ أوه، هي لا تعرف حقاً ما يدعون إليه، وهي غير معنية أساساً، لكنهم مجانين، والجميع يعرف ذاك. كيف استطاع، بحق السماء، أن يمضي ويرتبط معهم؟ نعم! الآن انجلى الأمرُ! كان هو نفسه سوف يُصلب، لكنه لم يُصلب، مخلّصهم صُلب بدلاً، وهذا أمرٌ رهيبٌ، طبعاً، جرب أن يشرح الأمر، هكذا، إن الخطأ لم يكن منه، وهكذا، ثم ظلوا يتحدثون عن مناقب الرجل الذي آمنوا به، كم هو طاهر وبريء، وكم هو مهم، وأي فظاظة أن يعامل ملكٌ عظيمٌ وسيدٌ تلك المعاملة، إلى أن ملؤوا رأسه بكل هذه السخافات حتى صار معتوهاً لأنه لم يمت، ولأنه لم يكن هو الذي كان ميتاً. هذا ما كان طبعاً، هذا ما حدث طبعاً! كان عليها أن تعرف ذلك لأنه لم يصلب! المغفّل! عليها أن تضحك، أن تطلق ضحكات عالية على غبيِّها باراباس العجوز. إنه أكثر إضحاكاً من أي كلمات. نعم. هاهي ذي القصة كلها.

لكن حتى في هذه الحال، آن الوقت ليتمالك نفسه، ويستمع إلى صوت العقل. عليها أن تكلمه. ما هذا الهراء كله؟

لكنها لم تكلمه. أرادت، إلا أنها لم توفّق. فلسبب ما لا يمكن لأحد أن يبدأ كلاماً مع باراباس عن نفسه. أرادت، لكنها لم تتوصل إلى طريق.

هكذا مضت الأمور كعهدها، وهي تظل تدور متسائلة عما حل به. أكان مريضاً؟ ربما كان مريضاً. لقد أمسى نحيلاً، والندبة التي سببتها سكين إلياهو كانت البقعة الوحيدة ذات اللون في الوجه الناصل الناحل. كان في هيئة يرثى لها، ولم يكن كما عُرِف. ذاته المألوفة ليست هي بأي

حال - ليس من عادته أن يمضي الوقت هكذا، أن يتمدد محدقاً إلى السقف. باراباس!

رجل مثل باراباس!

ليُفتَرَض أنه ليس هو؟ ليفترض أنه صار شخصاً آخر، إنه ممسوس بشخصٍ آخر، بروح أحدٍ سواه. حسبك أن تفكر بأنه لم يعد هو نفسه! يبدو الأمر هكذا بالتأكيد! بروح ذلك الرجل الآخر! ذلك الذي صُلب فعلاً! الذي لا يريد له الخير بالتأكيد. تصوّر أن ذلك «المخلّص» حين لفظ أنفاسه وأسلم الروح، نفثها في باراباس بدلاً، هكذا حتى لايموت، وحتى يُثأرَ له بسبب ما لحقه من ظلم، أن يُثأرَ له من الشخص الذي أطلق! هذا ممكن تماماً! وعندما يتفكّر المرء يرى أن باراباس كان غريب الأطوار مُذّاك! أجل، إنها تتذكر تصرفه الغريب حين جاء إلى هنا بعد إطلاقه، مباشرةً. نعم. ذاك ما جرى، وفسّرَ كل شيء. الأمر غير الواضح، هو كيف استطاع الربّانيّ أن ينفث روحه في باراباس، فقد أسلم الروح في الجلجلة وباراباس لم يكن هناك. لكن، إن كان قديراً كما يقولون، فقد يستطيع أن يفعل حتى ذلك، يستطيع أن يجعل نفسه غير مرئي ويذهب أنى شاء. لاشك في أن لديه القدرة على فعل ما يريد.

هل عرف باراباس ما حلّ به؟ أي هل عرف أن روح شخص آخر تلبَّستْهُ؟ أنه هو نفسه، كان ميتاً، لكن المصلوب كان حياً فيه؟ هل عرف؟ ربما لم يشك في شيء، لكن من السهل رؤية أنه الأسوأ لهذا السبب. لاغرابة، إذاً. إنها روح شخص آخر. وهذه الروح لاتريد له الخير. أسِفَتْ عليه المرأة، ولم تكد تتحمل النظر إليه. هو، من جانبه لم ينظر إليها بتاتاً، لكن هذا كان بسبب أنه لم يرد أن يراقبه أحد. لم يعد مهتماً

بها حتى أدنى اهتمام، ولهذا لم يكن ينظر إليها. كما أنه لم يعد يريدها ليلاً، وهذا أسوأ ما في الأمر، فهو يظهر أكثر من أي شيء آخر أنه لا يعبأ بها. وحدها كانت غبيةً بما يكفي لجعلها تتعلق بهذا الشخص التعيس. كانت تبكي مع نفسها في الليل، أما الآن، فلم تعد تشعر بأن بكاءها فعل حسن... لم تفكر البتة بمعاودة ما فعلته.

كيف تستعيده؟ كيف تطرد المصلوب وتجعل باراباس، باراباس، ثانيةً؟ ليست لديها فكرة عن طرد الأرواح. هي تجهل هذا الأمر تماماً، ثم أن هذا الروح قوي خطر، وهي ترى ذلك، فتكاد تخافه، مع أنها ليست ذات طبع مستكين. يكفيك النظر إلى باراباس كي ترى مبلغ قوته، كيف سيطر سيطرة كاملةً على رجلٍ ضخم قوي كان حتى فترة قصيرة حياً. الأمر أقوى من قدراتها. لا غرابة، إذاً، في أنها فزعة قليلاً. أكيداً أن هذا الروح ذو قوة خاصة فهو يعود إلى رجل مصلوب.

لا، هي ليست بالضبط خائفة. لكنها لا تحب القوم المصلوبين. هو ليس ممن تهوى. إن لها جسداً ضخماً، والشخص المناسب لها كان باراباس. باراباس، كما كان هو نفسه. كما كان قبل أن يعتقد بأنه هو الذي كان ينبغي أن يصلب. إنها متمسكة بحقيقة أنه ما كان ينبغي أن يصلب وبأنه قد أفلت.

هكذا كانت المرأة السمينة تتفكَّر في وحدتها الكبرى. وأخيراً خطر لها أنها في واقع الأمر لم تعرف أي شيء إطلاقاً عن باراباس. لا عما يشينه، ولا عما إذا كان مسكوناً بروح المصلوب أم لا. كل ما تعرفه أنه لم يهتم بها وأنها كانت حمقاء حين أحبَّته. بكت لهذه الفكرة، وتمددت هناك بالغةَ الشقاء.

باراباس، خلال عيشه معها، ذهب مرة أو مرتين إلى المدينة، وحدث أنه وجد نفسه في بيت كان مجرد قبو غائر فيه كوى هنا وهناك لدخول الضوء، ذي رائحة حادة للجلود والأحماض. كان جلياً أنه مدبغة مع أنه لا يقع في درب الدباغين، بل أسفل تل الهيكل باتجاه وادي كدرون. ربما كان واحداً من الأماكن التي تدبغ فيها جلود أضاحي الهيكل. لكن لم يعد مستخدماً والقدور والأحواض على امتداد الجدار كانت فارغةً، بالرغم من محافظتها على أبخرتها وروائحها. الأرضية مفروشة بلحاء البلوط والغائط والأوساخ من كل نوع.

باراباس كان مَرَق إلى الداخل، بدون أن يُلحظ، وجلس في ركنٍ قرب المدخل. هناك جلس يرقب الغرفة الملأى بالمصلين. بعضهم لا يستطيع رؤيته، والحق أن الوحيدين الذين يستطيع تمييزهم كانوا الموجودين حيثُ مساقطُ النور من كوى السقف. لكن يجب أن يكون هناك عدد كبير ممن يصلون في كل موضع، حتى في المواضع شبه المظلمة، فالغمغمة إياها مسموعة من هناك أيضاً. بين حين وآخر ترتفع الغمغمة وتقوى في موضع، كي تضعف ثانية مندمجة بالبقية. أحياناً يبدأ الجميع يصلون بصوت أعلى من قبل، وبورعٍ أشد، ثم ينهض أحدهم ليشهد، بانتشاء، عن المخلِّص الذي قام. حينها يصمت الآخرون فوراً، ويلتفتون ناحيته، كأنهم يستمدون منه القوةَ. وإذ ينتهي يستأنفون الصلاةَ، بحميةٍ أكثر من قبل. في الغالب ما كان باراباس ليستطيع رؤية وجه الشاهد، لكن حدث مرةً أن كان الشاهد جد قريب منه، فرآه يتصبب عرقاً. جلس يرقب الرجل في انجذاباته، فرأى كيف يتحدّر العرق على خديه الغائرين. كان رجلاً في منتصف العمر. وعندما انتهى رمى نفسه

على الأرضية التراب ومسّها بجبينه، كما يفعل الجميع في الصلاة، كأنه تذكّر فجأة أن هناك إلهاً أيضاً، وليس فقط ذلك الرجل المصلوب الذي كان يتحدث عنه الوقت كله.

بعده، تناهى إلى سمع باراباس صوت آت من بعيد، صوت بدا لباراباس أنه يعرفه. وعندما تطلع إلى تلك الناحية رأى الجليليَّ الضخم ذا اللحية الحمراء واقفاً في شعاع من النور. تكلّم أهدأ من الآخرين، بلهجته المحلية التي يراها أهل أورشليم غبية جداً. لكن هذا لم يهم، إذ انصتوا إليه بانتباهٍ أكثر، وتعلقوا بكلماته، بالرغم من واقع أن ليس في كلامه شيءُ مرموقٌ. في البداية تكلم فترةً عن معلمه العزيز مكتفياً بصفة المعلم، ثم أشار إلى أن المعلم قال إن من آمنوا به سيعانون الاضطهاد بسببه. فإن جرى هذا، سيتحملون الاضطهاد قدر مستطاعهم، متذكرين أن المعلم نفسه قد عانى العذاب. إنهم بشر تعساء ضعفاء، وليسوا مثله، لكن حتى لو كانوا هكذا، فإنهم سيتحملون المحن بدون أن يرتدّوا عن إيمانهم، وبدون أن ينكروا المعلم. هذا كل ما قاله. وبدا كأنه يذكر ما قاله لنفسه، مثل ما ذكره للآخرين. وعندما انتهى بدا كأن أمل الحاضرين خاب فيه. من الجلي أنه لحظَ ذلك، فقال إنه سيقول صلاة تعلمها مرة من المعلم. قال الصلاة، فبدا أنهم راضون عنه أكثر، بل أن بعضهم تأثر. الغرفة كلها أفعمتْ بنوع من الانتشاء. وحين أنهى الصلاة وظهر كأن المحيطين به «يهنئونه»، رأى باراباس أن أولئك المحيطين كانوا الرجال الذين قالوا له: «اذهب، أيها الشرير!».

ثم شهد واحد أو اثنان، بورع وتقوى شديدين حتى أن الرعية استمروا في تهليلهم، وأخذوا يهزّون أجسامهم أماماً ووراءً كأنهم في

غيبوبة. راقبهم باراباس من ركنه، منتبهاً إلى كل شيء بعينيه المتعبتين.

أجفل بغتةً. ففي أحد مساقط النور رأى الفتاة مشرومة الشفة واقفةً ويداها على صدرها المسوح، ووجهها الشاحب مصعد إلى أعلى، إلى النور الذي كان يتحدّر عليه. لم يكن رآها منذ ذلك الحين عند الضريح، وقد أمست الآن أكثر نحولاً وبؤساً، مرتدية أسمالاً، غائرة الخدين من الجوع. الحاضرون جميعاً كانوا ينظرون إليها متسائلين عمن تكون، إذ لا أحد يعرفها. وبمقدوره أن يرى أنهم يظنون بها أمراً، وإن جهلوا ما هو، سوى أنها ذات أسمال بالطبع. كانوا يتساءلون عم ستكون شهادتها، وكيف.

بِمَ تريدُ أن تشهدَ؟ ما الأمرُ؟ هتف باراباس في طويته. أكيدٌ أنها أدركت عدم مناسبتها! كان منفعلاً تماماً، مع أن المسألة بعيدة عنه. بمَ تريد أن تشهد؟

هي نفسها، لم تبد في غاية السعادة لهذا. وقفت مغمضة العينين، كأنها لاتريد أن تبصر من حولها، متشوفةً إلى أن تنتهي بسرعة. ماذا أرادت أن تفعله لهم، حين لا حاجة!

ثم شرعت تقدم شهادتها. ذكرت إيمانها بسيِّدها ومخلِّصها، ولم يكن في ما قالته شيءٌ مؤثرٌ، مثل ما هو مفترض. وعلى الضد، تكلمت بلا معقولية وارتباكٍ بسبب وقوفها أمام هذا الحشد، وبسبب عصبيتها.

أظهروا ضيقهم بها، وأشاح بعضهم عنها خجلاً. ثم انتهت بقولها «أيها السيِّد، لقد شهدت لك، كما قلت لي أن أفعل»، ثم انهارت على الأرضية التراب، محاولة الابتعادَ عن الأنظار.

تلاحَظوا، كما لو أنها سخرت مما كانوا فيه. وربما فعلت ذلك! ربما

كانوا مصيبين! كان همهم الوحيد الآن إنهاء اجتماعهم بأسرع ما يمكن.

أحد كبارهم الذي قال له مرةً: «اذهب، أيها الشرير»، وقف وأعلن أن عليهم التفرّق الآن. وأضاف أن الجميع يعلمون لماذا اجتمعوا هنا وليس في المدينة، وأنهم في المرة القادمة، سيجتمعون في مكان آخر، لا أحد يعرف أين هو الآن. لكن السيّد، بالتأكيد، سيجد لهم ملجأً يأمنون فيه شرَّ العالم، فهو لن يهجر رعيته، إنه راعيهم و...

باراباس لم يسمع مزيداً. إذ تسلَّل خارجاً، قبل الآخرين، وكان مبتهجاً بابتعاده عنهم.

مجرد التفكير بما جرى أَمْرَضَه.

-٧-

عندما بدأ الاضطهاد، ذهب الأعمى العجوز، يقوده الشاب اللاهث دوماً، إلى أحد القضاة في السانهدريم* وقال:

- بيننا، ثمة، عند بوابة الروث امرأة تنشر هرطقاتٍ عن مخلِّص آتٍ ليغيِّر العالم كله. كل ما هو قائم سوف يدمَّر، وسوف تتحقق إرادته. ألا ينبغي أن ترجم؟

القاضي، الذي كان امرءاً متأنياً، أخبر الأعمى أن يقدم أسباباً مفصلة لاتهامه. أولاً وقبل كل شيء، أي نمط من مخلِّص كان؟ قال الأعمى إنه عين ذلك الذي رُجِمَ أولئك الآخرون لإيمانهم به، فإن وجدت عدالةٌ فلترجم هذه المرأة أيضاً. هو نفسه سمعها تقول إن سيدها سيخلِّص كلَّ الناس، حتى المجذومين. سيشفيهم ويجعلهم سليمين مثل البقية. لكن ماذا سيحل لو صار المجذومون مثل البقية. إن صاروا يذهبون إلى كل مكان - ربما بلا أجراس يحملونها - فلا يعرف أحدٌ أين هم، في الأقل الأعمى مثلي. أشرعيٌّ نشرُ هذه الهرطقات؟

بعيداً عنه، بقليل، في الظلام، استطاع أن يسمع المستشار يمسِّد لحيته. ثم سُئل إن كان هناك مَنْ يؤمنون بما ادّعت؟

---

* المحكمة الشرعية العليا عند اليهود .

أجاب:

- حقاً: هناك. إذ أن بين تلك الحثالة في بوابة الروث أناساً مستعدين دوماً لسماع مثل هذه الأشياء. والمجذومون في قاع الوادي يحبونها أكثر طبعاً. المرأة تختلط معهم، وفي عدة مرات كانت داخل المنعزل، ويقال إنها تهتم بهم اهتماماً مخجلاً، وبلغني أنها ربما كانت تضاجعهم. لكنها ليست عذراء على أي حال، كما سمعت. ويقال إنها وضعت طفلاً قتلته. غير أني لا أدري. أنا أسمع، وحسب، ما يقال. لا عيب في سمعي. عيناي فقط مطموستان، ولهذا أنا أعمى. وتلك بلية عظمى أيها السيد الكبير. بلية عظمى أن يكون المرء أعمى.

سأله المستشار إن كان «المخلّص» كما سمَّته - والذي يجب أن يسمى المصلوب - قد كسب أنصاراً بينهم هناك، عن طريقها؟

- نعم، له أنصار. كلهم يريد أن يشفى، كما تعلم، وهو يشفيهم جميعاً، كما قالت - الأعرج، والممسوس، والأعمى - فينتفي الشقاء من العالم، سواء عند بوابة الروث، أو في أي مكان آخر. منذ وقت طويل كانت تقول إنه سيجيء، ولهذا غضبوا عليها مؤخراً، حين لم يجيء البتة، وانزعجوا منها، وصاروا يكيلون لها الشتائم. ولن يندهش المرء حين يسمعها تتحدث بهذه الأشياء، فلا يستطيع أحدٌ أن ينام. لكنَّ المجذومين مازالوا متشبثين به، وليس هذا عجباً إذا اعتبرنا طريقتها في غرسه عندهم. بل لقد وعدتهم بدخول ساحة الهيكل، والصعود إلى بيت الله.

- المجذومون؟

- نعم.

- كيف تستطيع أن تعد بأمر غير معقولٍ كهذا؟

- حسناً، ليست هي مَنْ قدم الوعد. سيدها قدمه، وهو من القوة بحيث يستطيع أن يعد بكل شيء ويغير كل شيء. إنه قادر على كل شيء، فهو ابن الله.

- ابن الله!

- نعم.

- أتقول هي إنه ابن الله!

- نعم. وذلك كفر خالص، لأن الجميع يعرف بأنه صُلب، وأظن أن ليست هناك حاجة للتحقق أكثر. فأولئك الذين حكموا عليه عرفوا تماماً ما فعلوا، أليس كذلك؟

- أنا نفسي كنت أحد مَنْ حكموا عليه!

- أوه، إذاً أنت تعرف كلَّ شيء عنه!

خيَّم الصمت فترةً، وكل ما سمعه العجوز في الظلام كان المستشار وهو يمسِّد لحيته ثانية. ثم أعلن الصوت أن المرأة سوف تستدعى أمام الهيئة لتُسأل عن دينها وتدافع عنه إن استطاعت. عبر العجوز عن شكره وانسحب، منحنياً بمذلةٍ، ثم شرع يتحسَّس الجدار ليجد سبيله إلى المدخل كي يخرج. نادى المستشار خادمه ليساعد الأعمى في الخروج، وبينما هما ينتظران سأل المستشار، الأعمى، لغرض الأمان، إن كان يحمل ضغناً على المرأة المعنيَّة.

- أحمل ضغناً عليها؟ لا. كيف أستطيع؟ أنا لم أحمل ضغناً على أحد بتاتاً. أنا لم أر حتى نفْساً واحدة.

ساعده الخادم في الخروج. خارجاً، عند المدخل وقف الشاب الذي من

بوابة الروث، لاهثاً في العتمة؛ أمسك الأعمى بيد الشاب، ومضيا عائدين إلى مكانهما.

عندما حُكم على الفتاة مشرومة الشفة، اقتيدت إلى وطيئة الرّجم الواقعة إلى الجنوب قليلاً، من المدينة. حشد من الناس المتصايحين ذهب معها، وضابط من حرس الهيكل مع رجاله ذوي الشعر المضفور واللحى، العراة إلى خصورهم، والمجهزين بسياط من جلد الثور المخرَّز بالحديد، للحفاظ على النظام. آن بلغوا الوطيئة انتشر الحشد المتحمس على حافتها، بينما هبط جندي بالفتاة إلى الوطيئة التي كانت ملأى بالأحجار، المحمّرة دماً في القاع.

أمر الضابط المكلف الناسَ بالصمت، ثم تلا مندوب للحاخام الأكبر قرارَ الحكم وسببه، طالباً ممن اتهمها أولاً، أن يرجمها بالحجر الأول. قادوا الأعمى إلى أمام عند الحافة، وأخبروه بما عليه أن يفعل، لكنه لم يرضخ.

- *لِمَ علي أن أرجمها بالأحجار؟ ما شأني بها؟ أنا لم أرها بتاتاً!*

لكن، حين أبلغوه، أخيراً، أن القانون يقضي بهذا، وأن عليه أن يمتثل، تمتم بأنه ممتثل. وضعوا حجراً في يده، فقذف به في الظلام. حاول ثانيةً لكن بدون جدوى، ذلك لأنه يجهل موضعَ الهدف. كان يرمي الحجر في الظلام المتساوي في كل الاتجاهات. باراباس الذي كان واقفاً جنبه، والمصوب عينيه فقط نحو الفتاة وهي في الوطيئة حيث ستُقذف عليها الأحجار - رأى الآن رجلاً يتقدم خطوةً ليساعد الأعمى. للرجل وجه شائخ مغضَّن جهمٌ وعلى جبينه انعقدت وصايا الشريعة في كبسولات جلدٍ. كان من الكتبة مثل ما يُفتَرض. أخذ بذراع الأعمى، وجرب أن

يهدف له، كي يمضوا في عملية الرجم. لكن النتيجة كانت مثل سابقتها. طاش الحجر بعيداً عن الهدف. المرأة المحكوم عليها كانت لاتزال واقفةً هناك في الأسفل، واسعة العينين، ملتمعتهما، تنتظر ما سيحدث.

المؤمن الصادق نفدَ صبره في النهاية، فانحنى والتقط حجراً كبيراً حاداً قذفه بكل قوته الشريرة على الفتاة مشرومة الشفة. أصابها الحجر فترنحت ورفعت ذراعيها النحيلتين بطريقة مستكينة. صاح الحشد صيحةَ استحسانٍ، ووقف المؤمن الصادق ينظر إلى فِعلَته راضياً. خطا باراباس ليكون لصقه، ورفع عباءته قليلاً، وطعنه بسكينه طعنةً نجلاء تنبئ عن خبرةٍ طويلةٍ. جرى الأمر بسرعة فلم يدرك أحدُ ما حدث.

شق باراباس سبيله إلى حافة الوطيئة ليرى الفتاة مشرومة الشفة تخطو مترنحةً خطوةً إلى أمام، ممدودةَ اليدين، صارخةً:

- لقد جاء! لقد جاء! إني أراه! إني أراه!...

ثم سقطت على ركبتيها، وكأنها تمسك بحاشية رداء شخصٍ ما، قالت:

- أيها السيد، كيف أستطيع أن أشهد لك؟ اغفرْ لي، اغفرْ...

ثم هوت على الأحجار الملطخة دماً وأسلمت الروح.

حين انتهى كل شيء، وجد الواقفون مباشرة عند الحافة، رجلاً قتيلاً بينهم، بينما شوهد رجل آخر يركض مبتعداً بين الكروم ويختفي في غياض الزيتون باتجاه وادي كيدرون. طارده عدد من الحراس، لكنهم لم يعثروا عليه. كأن الأرض انشقَّت وابتلعته.

- ٨ -

مع هبوط الظلام زحف باراباس عائداً إلى وطيئة الرجم، ونزل فيها. كان النظر متعذراً، لهذا تلمس طريقه في الظلام. في قاع الوطيئة وجد جسدها المهشَّم، نصفَ دفينٍ تحت الأحجار التي قذفت أكثر من اللازم بعد موتها. كان الجسد ضئيلاً وخفيفاً حتى لم يكد يشعر بثقل له وهو يحمله بين ذراعيه، صاعداً السفح الحادّ، ومبتعداً في الظلام.

حمله ساعةً بعد ساعة. وكان يتوقف بين حينٍ وآخر ليستريح قليلاً، والفتاة الميتة ممتدة على الأرض أمامه. الغيوم انقشعت والتمعت النجوم، ثم بزغ القمر أيضاً، فصار كل شيء مرئياً. جلس ينظر إلى وجهها، وتعجب لأن الوجه لم يؤذَ إلا قليلاً، ولأنه لم يكن أكثر شحوباً مما كان في حياتها. كان الوجه شفّافاً تماماً، وتضاءلت ندبة الشفة العليا حتى لم تعد تهمّ. خاصة الآن. فكّر أيام أراد أن يقول لها إنه يحبها. أيام نالها - لا. أبعدَ ذلك عن ذهنه. لكن حين قال إنه يحبها كي لا تفضحه، وكي تفعل مثل ما أراد - كيف تألّق وجهها... لم تعتد أن تسمع ذلك، مع أنها عرفت أكيداً أنه كذب. أو أنها لم تعرف - في كلتا الحالين جرت الأمور مثل ما شاء. جاءته كل يوم بما احتاجه للبقاء على قيد الحياة، ونالها كذلك بالطبع - أكثر مما أراد حقيقةً. ارتبط بها حين لم تكن ثمة

امرأة تحت يده، مع أن صوتها الأخنّ أرهق أعصابه، فطلب منها ألا تتكلم أكثر مما يلزم. وعندما شفيت رجلاه أخيراً، ابتعد عنها ثانيةً. هل من سبيلٍ آخر؟

نظر إلى الصحراء الممتدة أمامه، هامدةً قاحلةً، يضيئها النور الميت للقمر. إنها ممتدة هكذا في كل الاتجاهات. هو يعرف ذلك. لقد ألفها، بدون حاجة إلى أن ينظر حوله.

ليحببْ أحدكم الآخر...

نظر إلى وجهها ثانيةً. ثم رفعها مستأنفاً سبيله إلى الجبال.

كان يسلك درب الجمال والبغال المؤدي من أورشليم عبر صحراء يهودا - إلى أرض المؤابيين. الدرب غير باد للعيان، إلا من بعرٍ للحيوان، أو هيكل عظمي لأحدها نظفته الكواسر التي يراها المرء تحوم. وبعد أن ظل يسير حتى جاوز منتصف الليل شرع الدرب ينحدر، فعرف أن لم يبق أمامه الكثير. سلك سبيل الهبوط عبر فَلْعٍ أو فَلْعين حادّين ثم خرج كأنه يدخل في صحراء أخرى، أشدّ وحشيةً ووحشةً. الدرب يمتد عبرها، لكنه جلس كي يستريح من عناء حمله في الانحدار المرهق. إنه يقترب من مقصده، على أي حال.

تساءل عمّا إذا كان سيهتدي إليه بنفسه، أم أنّ عليه أن يسأل الرجل الشيخ؟ فضّل كثيراً ألا يراه، وأن يفعل كل شيء بنفسه. ربما لم يفهم الشيخ سبب جلبه إياها إلى هنا. لكن، هو نفسه، هل فهم السبب؟ هل من معنى له؟ فكّر، نعم، إنها تنتسب إلى هذا المكان، إن انتسبت. أسفل، في جلجال، لن يسمحوا لها بالمكث، وفي أورشليم سوف يرمونها إلى الكلاب. يجب ألا يحدث هذا. لكن ما يهم؟ ما الفرق بالنسبة لها؟

ماذا ينفعها إن جاء بها إلى هنا حيث عاشت مثل منفية وحيث يمكن أن تستريح في القبر نفسه مثل الطفل. لاشيء من هذا. لن ينفعها شيء. لكنه شعر بأنه أراد هذا كله على أي حال. ليس سهلاً أن تُرضي الموتى ما نفعُ ذهابها ذاك إلى أورشليم؟ ما نفعُ انضمامها إلى متعصبي الصحراء المجانين، المنادين بمجيء مسيحٍ عظيمٍ، والقائلين إنهم يجب أن يشقوا طريقهم إلى مدينة الله؟ لو استمعت فقط إلى الرجل الشيخ لما حلّ بها ما حلّ. الرجل الشيخ لم يرد أن يُزعزع نفسه، قال إنه زعزع نفسه مراراً بدون طائل، وإن هناك كثيرين خرجوا بدعوى أنهم المسيح، لكنهم ما كانوا إطلاقاً. لِمَ ينبغي أن يكون المسيح الصحيح في هذا الوقت بالذات؟ غير أنها استمعت إلى المجانين.

الآن ترقد هنا، مهشَّمةً، ميتةً، من أجله. المسيح الصحيح؟ أكان المسيح الصحيح؟ مخلِّص العالم؟ مخلِّص بني البشر كلّهم؟ إذاً، لمَ لم يساعدها في وطيئة الرجم هناك؟ لمَ تركها تُرجم من أجله؟ إن كان المخلص، فلمَ لَمْ يخلصها؟

كان بمقدوره أن يفعل ذلك لو أراد. لكنه أحبَّ العذاب. عذابه وعذاب الآخرين. وأراد الناس يشهدون له. «الآن شهدتُ لك مثل ما قلت لي أن أفعل...». «قائمٌ من الجحيم كي أشهد لكم...».

لا. إنه لم يحببْ ذلك المصلوب. لقد كرهه. كان هو مَنْ قتلها، طلب منها هذه التضحية وراعى ألاّ تنجو منها. فلقد كان حاضراً في الوطيئة وهي رأته وسارت نحوه مبسوطة اليدين طالبةً العون، وأمسكت بطرف ثوبه - لكنه لم يرفع حتى اصبعاً لمساعدتها. هو المفترض أن يكون ابن الله! ابن الله البار! مخلِّص الجميع!

على أي حال، هو طعن بالسكين ذلك الرجل الذي قذف الحجر الأول. هو، باراباس، حقّق هذا في الأقل. صحيح، الأمرُ بلا معنى، ذلك لأن الحجر كان قُذِفَ، وأصابها بالفعل. لا معنى لعمله إطلاقاً. لكن ماذا يهمُّ؟ لقد طعنه على أي حال!

مسح فمه الجاف بيده، وابتسم هازئاً بنفسه، ثم هزَّ كتفيه ونهض.

رفع حِمْلَه، نافد الصبر، كأنه شرع يُتعبه، ومضى في طريقه من جديد.

مرَّ بكهف الشيخ الناسك، وقد تبيَّنه بسهولة منذ مجيئه إلى هنا، بالمصادفة، ذلك الحين. ثم حاول أن يتذكر أين ذهبوا عندما دلّهم الشيخ نحو الطريق إلى قبر الطفل. كانت كهوف المجذومين إلى يمينهم، وكهوف متعصبي الصحراء أمامهم، لكنهم لم يصلوا حتى هذا البعد. أجل. هو يتذكر الأمر جيداً، مع أن الوضع مختلف الآن تحت ضوء القمر. كانوا ينحدرون نحو الغور عندما أخبرهم الشيخ أن الطفل قد ولد ميتاً، ملعوناً وهو في رحم أمه، وقد دفنه رأساً، لأن كل شيء يولد ميتاً، هو نجس ملعونةٌ ثمرة حقويك. الأم كانت لا تستطيع الحضور، لكنها في ما بعد كانت كثيراً ما تجلس عند القبر... الشيخ تحدَّث طوال الوقت...

لابد أن الموضع في مكان ما هنا.. أكيداً؟ نعم، هنا كانت بلاطة الحجر...

رفع البلاطة وأسجى الجسد بجانب الطفل الذي كان رميماً بالكامل. عدَّل من جسمها الممزق كأنه يريدها أن ترتاح، وأخيراً ألقى نظرةً على الوجه، وندبةَ الشفة العليا التي لم تعد تهمّ. ثم أعاد البلاطة إلى موضعها، وجلس يتطلَّع إلى الصحراء. جلس يفكر بأن الصحراء

تشبه مملكة الموتى، التي تنتسب إليها الفتاة الآن، ولقد حملها إليها. وما دامت هناك، فلا يهمّ أين ترقد، لكنها ترقد الآن جانب طفلها الرميم، وليس في أي مكان سواه.

لقد فعل من أجلها. فكر بهذا، ومسَّد لحيته الحمراء، مبتسماً، باستهزاء.

ليحببْ أحدُكم الآخر.

-٩-

آن عـاد باراباس إلى أهله كـان تبـدّلَ إلى حدّ جـعلهم لا يكادون يعـرفـونه. أصـحـابُهم الذين كـانوا في أورشليم، قـد أخبـروهم بـأنه بدا غريب الأطوار، ولا غرابة في هذا بعد أن أمضى في السجن زمناً طويلاً، وكاد يُصلب. وفكروا بأنه سرعان مـا يعـود إلى سيـرته الأولى. لكنه لم يعـد، لا أمس، ولا اليـوم، وقـد لا يعـود غـداً. إنهم لا يدركـون أصل البليّة، غير أنه ليس هو نفسه بالطبع، كان دائماً غـريب الأطوار. هم لم يفهموه بتاتاً، ولم يعرفوا كيف يعاملونه، لكن هذا شأنٌ آخر. كـان غريباً بينهم، وهو أيضـاً يراهم غـربـاء عنه لم يرهم من قـبل.. وعندمـا شرحـوا خططهم لم يعرها اهتماماً، ولم يبدِ رأياً فيها. كأنه غير مهتم بالأمر كله إطلاقـاً. شـاركـهم جـولاتهم على دروب القـوافـل، وغـاراتهم على وادي الأردن بين حين وآخر، لكن بدون حماسة ولا كثيرِ نفعٍ. فإن ألمَّ الخطر لم يتجنبه إلا قليلاً. ولربما كان هذا كلّه بسبب ثبوط همتـه. مرةً فـقط، حين نهبوا عربة العشور من أريحا إلى الحاخام الأكبر، استـشـاط حقداً وقـتل اثنين من حراس الهيكل كانا يرافقانها. وكـان القتل غير ضروري، إذ لم يقـاومـا، واستـسلمـا بمجرد أن وجدا أن المهـاجمين كثارٌ. وبعد ذلك، مثّل بجثتيهما تمثيلاً لا يصدق جعل الآخرين يشيحون بوجوههم عنه. حتى لو

كانوا يكرهون كل أولئك الحراس وحاشية الحاخام الأكبر إلا أن الموتى هم للهيكل، والهيكلُ لله، لقد أرعبهم تمثيله بهم.

إلا أنه من ناحيةٍ أخرى، لم يرغب في الانضمام إليه وأداء نصيبه، كما يفعلون جميعاً، وما كانوا يخططون له لم يعد من شأنه. حتى حين هاجموا مفرزةً رومانيةً في إحدى محطات العبور عند نهر الأردن لم يبدِ حماسةً خاصة، مع أن الرومان هم الذين أرادوا صلبه، ومع أن بقية أصحابه كانوا في حالة من الهياج الوحشي ذبحوا فيها كل جندي وألقوا بالأجساد في النهر. هذا لا يعني أنهم يشكون في حقده على مضطهدي شعب الله، لكنهم لو كانوا متهاونين قليلاً لدارت الأمور عليهم تلك الليلة. لم يحسب أحدهم حساباً للتبدّل الذي طرأ عليه، إذ كان باراباس هو الأشجع بينهم. يخطط لمغامراتهم وأول من ينفذها. وهو لا يعرف المستحيل. وبسبب شجاعته ومكره ارتضوا أن يدعوه يدبِّر التدابير على طريقته، وألغوا الاعتماد على المآل الحسن الذي ستؤول إليه الأمور. صار كالقائد، مع أنهم لايعترفون بقادةٍ في صفوفهم، ومع أن أحداً منهم لا يحبه حقاً. ربما لهذا السبب بالذات، لأنه غريبُ الأطوار، متقلّب المزاج، مختلفُ عنهم، ظلّوا لا يعرفونه حقّ المعرفة، وظل هو غريباً بينهم. هم يعرفون أمثالهم، لكنهم لا يعرفون عنه شيئاً إن تعلّق الأمرُ به، والعجيب تماماً أنهم منحوه ثقتهم. حتى حقيقة أنهم يخافونه بعض الخوف سراً منحتهم الثقة بأنفسهم. وإن كانت المسألة برمتها عائدةً إلى ذكائه ومهارته ونجاحه في ما تولاّه.

أما الآن، فما حاجتهم إلى قائدٍ لم يبدِ أي رغبة في القيادة، بل حتى في أن ينهض بنصيبه، كما يتعيَّن على كلٍّ واحدٍ منهم؟ إنه ليفضّل

القعود عند فم الكهف ليحدق إلى أسفل، عبر وادي الأردن، وبعيداً عبر البحر المسمى ميتاً. وهو ينظر إليهم بعينيه المستطلعتين، فلا يستريحون إليه. هو لا يتكلم معهم حقاً، فإن تكلم شعروا أكثر من السابق بأن في حاله عجباً. لكأنه في مكان آخر تماماً. الحال لا يدعو إلى الاطمئنان. ربما كان مردّ هذا ما مر به في أورشليم، حين كاد يُصلب. والواقع أنه يبدو كمن صُلِبَ بالفعل ثم عاد إلى هنا ثانيةً. الأمر سواء.

نشر الضيقَ حولهم. وما كانوا مرتاحين لوجوده بينهم، بعد عودته. إنه لم يعد ينتسب إلى هنا. لا يمكن أن يقودهم، وهو لا يصلح لغير أن يكون قائداً. إذاً، لم يكن شيئاً؟ لا. غريبٌ جداً - لم يكن شيئاً إطلاقاً!

الآن صاروا يتفكّرون في أمره. هو لم يكن على الدوام مَنْ يقود ويقرِّر، ولا كان دائما باراباس المقدام، غير الهيّاب، المندفع إلى الخطر والموت وكلِّ شيء. لم يكن كذلك حتى جرحه إلياهو ذلك الجرح تحت العين.

قبلها كان كل شيء، سوى الشجاع المقدام. تذكّروا الأمر باعتباره واقعاً، لكن بعد حادثة إلياهو، غدا، فجأةً، رجلاً. بعد تلك الطعنة الغادرة، المستهدفة القتل، وبعد عراك الموت الذي تبعها، العراك الذي انتهى بإلقاء إلياهو الماكر الشرير قتيلاً في الجرف أسفل فم الكهف. كان الشاب أكثر حذراً وقوةً، ولم يستطع المقاتل العجوز الثبات، برغم قوّته، فكان ذلك العراك نهايته. لماذا أثار العراك؟ لماذا كره باراباس دائماً؟ لم يجدوا سبباً للأمر. لكنهم لحظوا أنه فعل هذا منذ اللحظة الأولى.

بعد ذلك صار باراباس قائدهم. وحتى ذلك لم يكن باراباس ليتمتّع بميزةٍ خاصةٍ. لم يصرْ رجلاً حقيقياً إلا بعد أن أُصيب بجرح السكين ذاك.

هكذا، جلسوا يتحدثون متهامسين.

لكن ما لم يعرفوه، ما لا أحد يعرفه إطلاقاً، هو أن إلياهو هذا الذي يتصوّرونه الآن بكل جلاءٍ وحيوية كان أبا باراباس. لا أحد يعرف. لا يستطيع أحد أن يعرف. أمه كانت امرأة مؤابيةً سَبَتْها العصابة قبل عدة سنين حين نهبت قافلةً على طريق أريحا. وقد تمتعوا بها كلهم، قبل أن يبيعوها إلى مبغى بأورشليم. وبعد أن افتُضِحَ حملها طردتها صاحبة المبغى، فوضعت مولودها في الشارع، ووجدت ميتةً في ما بعد. لم يعرف أحدٌ أباً للمولود، وما كان بمقدورها هي أن تقول، سوى أنها لعنت ما في رحمها، وحملته كُرْهاً، ووضعته خلاف ما تقضي به السماءُ والأرضُ وخالقُ السماوات والأرض.

لا. لا أحد يعرف لهذا أسّاً أو رأساً. لا الرجال المتهامسون عميقاً داخل الكهف، ولا باراباس القاعد في الفتحة ينظر في الفراغ عبر جبال مؤاب المحترقة والبحر الذي لا ينتهي، المسمى ميتاً.

لم يكن باراباس حتى ليفكر في إلياهو، مع أنه يجلس في ذات المكان الذي طوّح به منه على الصخر. كان يفكر بدلاً، لسبب ما، أو بلا سبب، بأم المخلّص المصلوب، وكيف وقفت تنظر إلى ابنها المسمّر، إلى من وضعته يوماً. تذكّر عينيها الناشفتين، ووجه الفلاحة الخشن العاجز عن جلاء الحزن الذي تشعر به، وربما لم تشأ ذلك لأنها بين أغراب. وتذكر نظرتها اللائمة حين مرّ. لمَ نظرت إليه هو؟ بينما هناك بالتأكيد كثيرون يستحقون اللوم!

غالباً ما فكّر بالجلجلة، وما حدث هناك. وغالباً بها، أمّ ذلك الرجل الآخر...

سرَّحَ بصره ثانيةً عبر الجبال على الضفة الثانية من البحر الميت، ورأى كيف أطبق الظلام عليها، على أرض المؤابيين.

-١٠-

ظلّوا يتداولون طويلاً بشأن التخلُّص منه. تشوُّفوا إلى التحرّر من هذا العاجز المزعج، والخلاص من مرأى وجهه الكئيب الذي يحبطهم ويجعل كل شيء محزناً. لكن كيف يدبرون الأمر؟ ما العمل؟ كيف بمقدورهم أن يقولوا له صراحةً إنه لم يعد يناسبهم هنا، وإنهم سيسرّون برحيله؟ مَنْ سيخبره؟ لا أحد فيهم مستعدٌ – وبصراحة لا أحد فيهم يجرؤ. فمن غير سبب، كانوا لا يزالون مسكونين بنوعٍ من الخوف غير المعقول.

هكذا استمروا يتهامسون، قائلين كم ضاقوا به ذرعاً، وكم يكرهونه، بل كم كرهوه دوماً، وربما كانت غلطته هو سبباً في كونهم يعانون سوءَ الطالع، وفي أنهم فقدوا رجلين منهم مؤخراً. لن يحالفهم الحظ مادام هذا الـ «يونس» بينهم. ساد في الكهف جو تعسٌ وتوترٌ، والتمعت العيون الكامدة في العتمة شبه المطبقة، تنظر إلى الرجل الذي كان يتفكّر وحده، خارج الكهف، في الجرف، كأنه مشدودٌ إلى مصيرٍ شريرٍ.

كيف يتخلصون منه؟

لكن، حدث ذات صباح، أنه اختفى ببساطة. هو لم يكن هناك

وحسبُ. ظنوا أولاً أنه فقد رشده وألقى بنفسه على السفح، أو أن روحاً خبيثاً دخله، وطوَّح به إلى الفضاء. ربما كان روح إلياهو المنتقم؟

لكنهم لم يجدوه حين بحثوا عنه، أسفل، في الموضع الذي كان فيه جسد إلياهو الميت. كما لم يجدوا له أي أثر في أي مكان. لقد اختفى ببساطة. شعروا بارتياحٍ عظيمٍ، فعادوا إلى مخبئهم في السفح الوعر للجبل، الذي كان يتّقد منذ الآن بالشمس.

-١١-

عن مآل باراباس، ومظانّه، وماذا فعل بنفسه، بعد هذه الأحداث، وخلال ما بقي من عهد رجولته، لا أحد يعرف معرفةً أكيدةً.

بعضهم يعتقد أنه لاذ بالصحراء بعد اختفائه ليعتزل اعتزالاً كاملاً، في صحراء يهودا، أو صحراء سيناء، يتفكّر في عالم الله والبشر؛ بينما يظن آخرون أنه انضم إلى السامريين الذين يكرهون الهيكل في أورشليم والكتبة والكهنة هناك، وقيل إنه شوهد خلال عيد الفصح اليهودي على جبلهم المقدس يضحّي بحَمَلٍ، راكعاً، ينتظر شروق الشمس في جرزيم. غير أن قوماً أكدوا أنه كان في معظم وقته، وبكل بساطة، زعيمَ عصابةٍ من قطاع الطرق على سفوح لبنان، باتجاه سوريا، شديد القسوة على مَنْ يقع في قبضته يهودياً كان أم مسيحياً.

وكما سلف، ليس بمقدور أحد أن يعرف أياً من هذه الأقوال هو الصحيح. لكن المعروف بصورة أكيدة أنه وقد تعدّى الخمسين من عمره صار عبداً في بيت حاكم بافوس الروماني، بعد أن أمضى سنين عدة في مناجم النحاس القبرصية التي كان الحاكم يديرها. ولا أحد يعرف سبب القبض عليه، والحكم عليه بالعمل في المناجم، أبشع عقابٍ ممكنٍ. غير أن المثير أكثر، هو عودته ثانيةً إلى الحياة بعد هبوطه إلى ذلك الجحيم،

مع أنه ظلّ عبداً. وقد كانت ثمة ظروف خاصة متصلة بالأمر. إنه الآن رجل شائبٌ، مغضَّن الوجه، لكنه محتفظ بقوته، بالرغم من كل ما قاساه. حين ترك المناجم كان في هيئة الميت أكثر مما هو في هيئة الحي، جسده متداعٍ، وعيناه كابيتان مثل بئرين مطويّتين. لكن عندما عاد التعبير إليهما، كان أشد قلقاً مما مضى. عينان غير مستقرتين، تبدوان مستكينتين مثل عيني كلب، لكنهما تلتمعان بين وقت وآخر التماعَ ذلك الحقد على كلِّ البشر الذي أورثته إياه أمه حين وضعته. والندبة تحت العين التي تلاشت، عادت من جديد، متغورةً أكثر في لحيته.

لو لم يكن مقدوداً من صخرٍ لما تحمّلَ ما تحمّلَ. وعليه أن يشكر إلياهو والمرأة المؤابية، فقد منحاه، ثانيةً، الحياة، مع أنهما، كليهما، كرهاه ولم يحبباه. ولا هو أحبهما. هذا مقدار الحب. لكنه لايعرف كم هو مدين لهما، ولعناقهما المشؤوم.

المنزل الذي جاءه، واسعٌ، فيه عبيد كثارٌ، بينهم رجل بالغ الطول والنحول، أرمنيّ اسمه ساهاك. وكان من فرط طوله يمشي منحني القامة. عيناه واسعتان، جاحظتان قليلاً، مما يمنح نظرته بريقاً ما. شعره الأبيض القصير ووجهه الملوح يوهمان بأنه عجوز، مع أنه في الأربعين من عمره. هو أيضاً كان في المناجم، حيث أمضى مع باراباس سنيِّهما معاً، ومعاً أفلحا في الخلاص، لكنه لم يُعافَ مثل باراباس، فهو لايزال بالغ النحول، كما أن وجهه الملوح وشعره الأشيب يدمغانه بمرأى محترق يجعله يبدو مختلفاً.

حتى لكأنه قاسى محنةً لم يقاسها باراباس بالرغم من كل شيء. والحق أن الأمر هكذا. العبيد الآخرون كانوا جدّ مستغربين من هذين

الاثنين اللذين استطاعا أن ينجوا مما لا ينجو منه امرؤ حياً، وودوا لو أسمعاهم شيئاً. لكنهم لم يظفروا منهما بأي شيء يتعلق بماضيهما. ظل الاثنان متلازمين، مع أنهما لا يتحادثان كثيراً، ولايبدو أن ما يجمعهما كثيرٌ. لكن بالرغم من هذا كانا يظهران غير قابلين للانفصال بطريقة ما. أمرٌ غريبٌ. إلا أنهما إذ يجلسان جنباً إلى جنب في الوجبات، وأوقات الفراغ ويناما متجاورَين على التبن ليلاً، فلأنهما كانا مغلولين إلى بعضهما في المناجم.

جرى هذا لحظة وصولهما، منقولين من البلاد. كان العبيد يقيَّدون بالسلاسل اثنين اثنين، ويظل الاثنان يعملان معاً في أعماق المناجم. لن يُفصل أحدهما عن الآخر أبداً، وهذان العبدان التوأمان يفعلان كل شيء معاً، فيعرف أحدهما عن الآخر، مع الوقت، كل شيء، حدّ البغض الشديد أحياناً. وكان معروفاً أنهما قد يشتبكان في عراك مريرٍ لمجرد أنهما مغلولان إلى بعضهما في الجحيم..

لكن هذين الاثنين بَدوا متلائمين، بل أن أحدهما ليساعد الآخر في تحمّل شقائه. وكانا قادرين على المضيّ هكذا، والتحدّث، فيعينان نفسيهما على العمل الشاق. باراباس، بطبعه، ما كان اجتماعياً، ولهذا كان الآخر هو المتكلم في الغالب، إلا أن باراباس أحبّ الاستماع. لنقلْ أولاً إنهما ما كانا ليتحدثا عن نفسيهما، أو ليريدا ذلك كما يبدو، ومن الجليّ أن لكل منهما أسراراً لا يريد البوحَ بها، ولهذا مرَّ حين طويل قبل أن يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً حقيقياً. بالمصادفة المحض حدث أن أشار باراباس إلى أنه عبري من أورشليم.

وقد اهتمّ ساهاك بالأمر اهتماماً شديداً وشرع يسأله هذا السؤال أو

ذاك. وظهر أنه يعرف المدينة جيداً، مع أنه لم يكن هناك. أخيراً، استفسر من باراباس إن كان يعرف بربّانيّ عاش وعمل هناك، نبي عظيم آمن به كثيرون. عرف باراباس مَنْ أراد وأجاب بأنه سمع عنه. ساهاك كان متلهفاً لمعرفة شيء يتعلق بالرباني لكن باراباس تفادى الجواب قائلاً إنه لا يعرف الكثير - ترى، هل رآه رؤية العين؟ نعم... هذه حقيقة. علّق ساهاك أهميةً كبيرةً على رؤية باراباس الرجلَ، إذ سأله بعد حين، ومرةً أخرى، إن كان ما قاله حقاً. وثانيةً أجاب باراباس بـ: نعم، وإن كانت إجابته هذه المرة باردةً.

خفض ساهاك معوله، ووقف غارقاً في التفكير، غارقاً تماماً في ما حدث له. لقد اختلف كل شيء لديه الآن، حتى ما عاد يعرفه. وعِرْقُ المنجم تحوّل، وما عاد أي شيء مثل ما كان. فهو مغلولٌ الآن مع مَنْ رأى اللهَ.

وبينما هو واقف هناك، أحسَّ بلسعةِ سوط النخاس على ظهره. انكمش تحت الضربات كأنه يتجنبها، ثم أخذ يطوِّح بمعوله المدبب، وعندما لفظ معذبُه أنفاسَه كان هو ملطخاً بالدم، وجسمه الفارع لايزال يرتجف من وقع السياط. مضى وقت قبل أن يستعيد القدرةَ على الكلام، لكنه حين نطق طلب من باراباس أن يروي له كيف رأى الربّانيّ. أكان ذلك في الهيكل؟ في مكانِ التعبّد؟ أكان ذلك حين تحدّث عن ملكوته القادم؟ أم متى؟ في البداية، لم يردْ باراباس الإجابة، لكنه أجاب متردداً أن ذلك كان في الجلجلة.

- الجلجلة؟ ماذا؟

قال باراباس إنها مكان يُصلبُ فيه المجرمون.

صمت ساهاك، وأغمض عينيه. ثم قال بهدوء:

- آه، آنذاك...

هكذا كانت المرة الأولى التي تحدثا فيها عن الربّانيّ المصلوب، ولسوف يتحدثان أكثر مستقبلاً. ساهاك متشوِّق لسماع المزيد، وبخاصة عن الكلمات المقدَّسة التي قال وعن المعجزات التي أتى. هو عرف، طبعاً، أنه صلب، لكنه تمنّى من باراباس أن يحكي له عن أشياءٍ أخرى.

الجلجلة... الجلجلة... اسم غريب، غير مألوف، لشيء معروف جداً لديه. لكم سمع عن كيفية موت المخلِّص على الصليب، وعن العجائبِ التي حدثت بعد ذلك؟ استفسر من باراباس عما إذا كان رأى كسوة الهيكل بعد استئجارها؟ والصخرة المنفلعة - ينبغي أنه رأى ذلك، فلقد كان واقفاً هناك في تلك اللحظة بالذات؟

أجاب باراباس بأن هذه الأمور قد تكون حدثت، لكنه لم يرها.

- نعم، والموتى الذين أحيوا من قبورهم! ذاك الذي قام من مملكة الموتى ليشهد له، لقوته ومجده!

- نعم. قال باراباس.

- والظلام الذي أطبق على الأرض كلِّها، حين أسْلَمَ الروحَ؟

نعم، قال باراباس، لقد رأى الظلام.

لكأن ساهاك سعيد تمام السعادة لسماع هذا، مع أنه بدا قلقاً من فكرة موقع الإعدام ذلك، فهو يكاد يرى صخرة المنحدر والصليب المنصوب عليها، وابن الله مسمّر ليصلب. طبعاً، كان على المخلِّص أن يتعذّب ويموت، كان عليه أن يفعل ذلك لينقذنا. ها هو ذا الأمر. مع صعوبة فهمه. وإنه ليفضل تفكّره في مجده، في ملكوته، حيث كل شيء

مختلفٌ عما هو هنا. وود لو أن باراباس المغلول إليه، رآه مرةً أخرى، وليس على الجلجلة.

كيف حدث أن رآه في ذلك المكان، لا في سواه؟

- أن تراه حينها بالذات، أليس هذا غريباً؟ لمَ كنت هناك؟

هكذا سأل ساهاك، باراباس.

لكن باراباس لم يجبْ عن هذا.

ومرةً استفسر منه ساهاك عما إن لم يره، مرةً أخرى، أيضاً؟ باراباس لم يجبْ فوراً، لكنه قال إنه كان حاضراً في باحة القصر حين كان الحكم يصدر على الربّانيّ. وقد وصف كل ما جرى. كما أشار أيضاً إلى النور العجيب الذي غمر ما حوله في تلك المناسبة. وإذ لاحظ مبلغ سعادة ساهاك بذكر النور، لم يعبأ بأن أشار إلى أن نور الشمس بهر عينيه، هو الخارج تواً من الزنزانة. لمَ أشار إلى ذلك؟ الآخر ما كان هذا ليعنيه - مثل ما لم يكن ليعني أحداً. ولأنه لم يشأ أن يقدم تفسيراً للمعجزة، أدخل السعادة في فؤاد ساهاك، فأراد هذا أن يستعيد الحكاية أكثر من مرة. لقد أشرق وجهه، وباراباس نفسه أحسّ بشيء من هذه السعادة - كأنهما يقتسمانها. وكلما سأله ساهاك حدثه عن رؤياه المدهشة، وقد مضى عليها من الزمن ما يجعله يتصوّرها بالغة الجلاء.

بعد مرور وقتٍ، أسرَّ إلى ساهاك أنه شهد أيضاً قيامةَ المعلم. لا. ليس معنى هذا أنه شاهده يقوم من موته. لا أحد فعل ذلك. لكنه رأى ملاكاً ينقض من السماء وقد مدَّ ذراعه كسنان الرمح، وعباءته تلتهب وراءه مثل شعلة نار. سنان الرمح أزاح البلاطة الحجر عن القبر، وباعد بين الحجر والصخر. آنذاك رأى القبر خالياً...

استمع ساهاك مندهشاً، وعيناه الواسعتان الذكيتان مثبتتان على الآخر. أممكنٌ هذا؟ أممكنٌ حقاً لهذا العبد القذر التعس أن يرى هذا؟ وأن يكون حاضراً وقت وقعت معجزةُ المعجزات؟ مَنْ هو؟ وكيف قدِّر له، هو نفسه، أن يحظى بأن يسلك مغلولاً إلى مَنْ شهد ذلك، وكان جدّ قريب من الربّ.

كان مبتهجاً لما سمع، وشعر بأن عليه الآن أن يبوح بسرّه إلى الآخر، إذ لم يعد بمقدوره كتمانُه. حذِراً نظر حوله ليتأكد من أن أحداً لن يأتي، وهمس لباراباس بأن لديه ما يريد أن يريه له. مضى به إلى قنديل الزيت الموقد على مهادٍ في سطح الصخر، وأراه في الضوء الخافق قرص العبد الذي يحمله حول عنقه. العبيد كلهم يحملون أقراصاً مماثلة مختومة بعلامة المالك. العبيد هنا في المنجم يحملون علامة الدولة الرومانية على أقراصهم، فإليها هي يعودون. لكنهما استطاعا أن يتبينا على قفا قرص ساهاك عدة إشارات غريبة غامضة لم يعرفا لها مغزى إلا حين بيّن ساهاك أنها تعني اسم المصلوب، المخلِّص، ابن الله. نظر باراباس مندهشاً إلى الحزوز التي بدت ذات مظهر سحري، لكن ساهاك أوضح أن معناها هو أنه يعود إلى ابن الله، وأنه عبده. وسمح لباراباس أن يلمسها. وقف باراباس حيناً ممسكاً بها.

للحظة ظنَّا أن مراقب العمل يجيء، لكن الأمر لم يكن كذلك، ومال أحدهما أشدّ على الآخر كي يشاهدا الخط. قال ساهاك إنه من عمل عبد يوناني. كان مسيحياً أخبره عن المخلِّص وملكوته الوشيك، وهو مَنْ لقّنه الإيمان. كان ساهاك التقاه عند أفران الصهر، حيث لا يمكن أن تمتد حياة الشخص أكثر من سنة في الغالب. لم يعش اليوناني مدة السنة،

وعندما كان يحتضر في الحرارة الموقدة سمعه ساهاك يهمس: «إلهي، لا تخذلني». قطعوا قدميه ليفكّوا أغلاله بطريقة أسهل، ثم قذفوا به في الفرن، كما يفعلون دائماً في مثل هذه الحالات. توقع ساهاك نهايةً مماثلةً، لكن بعد فترةٍ طويلةٍ نقل عددٌ من العبيد وبينهم ساهاك إلى هنا، حيث الحاجة ماسة إلى عبيدٍ أكثر.

عرف باراباس الآن، أنه هو أيضاً كان مسيحياً مادام عبد الله، وانتهى ساهاك بأن نظر إلى باراباس بعينيه الثاقبتين.

ظل باراباس لأيام عدة تالية، منكمشاً هادئاً. ثم استسفر من ساهاك بصوت غريب الخفوت إن كان يستطيع حفر الخطوط ذاتها على قرصه هو أيضاً.

سرَّ ساهاك، مبدياً استعداده. هو لايعرف العلامات السرية، لكن بمقدوره أن ينسخ ما على قرصه.

انتظرا فرصتهما حتى مرَّ مراقب العمل، فبدأ ساهاك، في ضوء قنديل الزيت، وبكسرةٍ حادة من الصخر، يحفر العلامات، قدر استطاعته. لم يكن يسيراً عليه، أن ينسخ العلامات الغريبة، بيده غير المدرّبة، لكنه بذل جهداً جهيداً كي تكون العلامات مماثلةً قدر الإمكان. توقفا عدة مرات لأن أحداً يجيء، أو لأنهما تخيلا ذلك، لكن النسخ تم أخيراً، ورأى الاثنان كلاهما أن التماثل قائم. وقف كل منهما ينظر صامتاً إلى علاماته الغامضة التي لا يفهمها، لكنه يعرف أنها تعني اسم المصلوب - الذي يعودان إليه. وفجأة ركع الرجلان في صلاة حارة لسيدهما، مخلّص كل المظلومين وإلههم.

رآهما مراقب العمل من مسافة ما، راكعين كما كانا قرب القنديل،

لكنهما بسبب استغراقهما لم يلحظا أي شيء. أسرع إليهما، وانهال عليهما بالسياط حتى أشرفا على الهلاك. عندما تركهما أخيراً، تهاوى ساهاك على الأرض، لكن مراقب العمل استدار وأرغمه بالسوط على الوقوف. استأنفا العمل مترنحين، يسندُ أحدهما الآخر.

كانت تلك المرة الأولى التي تحمَّل فيها باراباس العذاب من أجل المصلوب، ذلك الربّاني ذي البشرة الشاحبة والصدر الأملط، الذي صُلب بدلاً منه.

هكذا مضت السنون، يوماً بعد يوم. وما كان بمقدورهما أن يميزا بين يوم وآخر لو لم يكونا يجرفان إلى موقع آخر كل مساء ليهجعا مع مئات من أمثالهما كانوا منهكين أيضاً، وهكذا يتبيّن النهارُ من الليل. مثل أشباح عديمة الدم كانوا يحيون، عاماً بعد عام، في الظلمة شبه المطبقة، هناك في الأسفل، في مملكة الموت، يستهدون بالقناديل الخافقة هنا، وبنار الحطب هناك. في الأعلى، عند مدخل المنجم يشق بصيصٌ من نور النهار طريقه إلى أسفل، هناك بمقدورهم أن ينظروا نحو ما يمكن أن يكون السماء. لكنهم لن يروا شيئاً من الأرض، من العالم الذي انتسبوا إليه يوماً. هناك أيضاً، من مدخل المنجم، كان الطعام يدلّى إليهم في سلالٍ وأوعيةٍ قذرةٍ، يلتهمون ما فيها كالحيوانات.

إن ساهاك لحزينٌ حزناً عظيماً. باراباس لم يعدّ يصلي معه. فعل هذا مرةً أو مرتين حين أراد أن ينقش اسم المخلص على قرصه، ثم لم يفعلها.

لقد أمسى، بكل بساطة، شخصاً متحفِّظاً، غريباً، عصيًّاً على الفهم. لم يفهم ساهاك شيئاً. كان الأمر بالنسبة له غامضاً. ساهاك نفسه

ظل يصلّي، لكن باراباس كان يكتفي بالإشاحة، كأنه يأنف حتى المشاهدة. كان يضع نفسه في موضع يستر ساهاك، ويجعل من يأتي مصادفةً، لا يراه يصلي. لكأنه يريد مساعدته في الصلاة. أما هو نفسه فلم يصلِّ.

لماذا؟ وما السبب؟ لم يحر ساهاك جواباً. الأمر كله أحجيةٌ، مثل ما صار باراباس أحجيةً لديه. كان ظنّ أن عرفه جيداً، وأنهما صارا حميمين في العالم السفلي، في مكان عقابهما المشترك، خاصة عندما ركعا وصليا معاً مرات قليلة. وفجأة رأى أنه لا يعرف شيئاً عنه، إطلاقاً، بالرغم من أنه مغلول إليه. بل لقد شعر أحياناً أن هذا الرجل الملاصق، غريبٌ عنه، تماماً، بصورةٍ ما.

مَنْ يكون؟

ظلا يتحادثان، لكن ليس كالسابق مطلقاً، وكانت لباراباس طريقة في نصف الالتفات حين يتحادثان. لم يعد بمقدور ساهاك أن يرى عينيه. لكن، أتراه رآهما يوماً ما؟ وإذ فكر الآن بهذا - لا. إنه لم يرهما فعلاً، البتة. إذاً، لمن هو مغلول؟

لم يعد باراباس يتكلم عن رؤاه. ولم يصعب على ساهاك فهم فقدان ذلك، ولا فهم الخواء. حاول ساهاك استعادة تلك الرؤى، حاول أن يتمثّلها أمامه، لكن ذلك الأمر ما كان بالسهل. وما كان الحال هو الحال - ذلك غير ممكن. فهو لم يقف البتة إلى جانب المحب لينبهر بالنور المحيط. وهو لم يرَ اللهَ قط.

كان عليه أن يغبط نفسه لذكرى شيء مدهش رآه مرةً في عيني باراباس.

أحب رؤيا صبيحة الفصح، بخاصة، الملاك الملتهب وهو ينقض ليطلق السيد من الجحيم. بتلك الصورة الجلية أمامه عرف ساهاك أن السيد قام من الموت لاشك، وأنه حيّ. وأنه سيقيم ملكوته هنا على الأرض، مثل ما وعد كثيراً. لم يشك ساهاك لحظةً في هذا، كان متأكداً من حدوث الأمر. آنذاك سينادَون ليخرجوا من المنجم؛ كل من يذوون هنا. أجل، الربّ نفسه سوف يقف في مدخل المنجم، يستقبل العبيد، ويحرِّرهم من أغلالهم التي جاؤوا بها، حينها سيدخلون جميعاً ملكوته.

تشوّف ساهاك كثيراً إلى هذا. وكلما حان موعد للطعام، وقف وتطلّع إلى أعلى ليرى إن كانت المعجزة واقعةً. لكن ليس بمقدور أحد أن يلمح شيئاً من العالم هناك، ولا أن يعرف ما قد يكون حدث. ربما وقعت أمورٌ مدهشةٌ كثيرة لم يعرف بها المرء حتى أدنى معرفة. مع أنهم سوف يُخرَجون إن حدث أمر كذلك فعلاً، إن جاء الربّ. هو لن ينساهم بالتأكيد، ولن ينسى عباده هنا في الجحيم.

مرةً حدث أمرٌ غريبٌ، حين كان ساهاك راكعاً على الصخر، يصلي. إذ جاء مراقب جديد حل محل معذبهما السابق، واقترب منهما، من الخلف، بطريقة لم يره فيها ساهاك ولم يسمعه. لكن باراباس الذي لم يكن يصلي لمح الرجل في شبه العتمة، وهمس لساهاك بأن أحدهم قادم. نهض ساهاك فوراً، وقطع صلاته، وشرع يعمل بمعوله منهمكاً. توقّع الأسوأ، وانكمش على أي حال، كأنه مستعد لتلقي ضربات السوط على ظهره. ولدهشتهما البالغة، لم يحدث شيء. المراقب توقف فعلاً، غير أنه سأل ساهاك برفق عن سبب ركوعه، ومعناه. تلعثم ساهاك وهو يخبره بأنه كان يصلي لربِّه.

سأله الرجل: أي ربّ؟

وعندما أجابه ساهاك، أومأ برأسه صامتاً كأنه يقول إنه ظن الأمر هكذا. أخذ يسأله عن «المخلّص» المصلوب الذي سمع به، وفكر به كثيراً. أحقاً أنه سمح بأن يصلب؟ وأنه عانى الموت الذليل لعبد؟ وأنه مع ذلك كان قادراً على أن يجعل الناس يعبدونه في ما بعد رباً؟ عجيب، عجيب حقاً... ولماذا سمّي المخلص؟ اسمٌ عجيبٌ لربّ... ما معناه؟ هل يفترض أنه سيخلّصنا؟ سيخلص أرواحَنا؟ غريبٌ... لِمَ كان عليه أن يفعلَ ذلك؟

حاول ساهاك أن يشرح قدر مستطاعه. واستمع الرجل راغباً، مع أن شرح العبد الجاهل كان قليل الوضوح والكفاءة. بين حين وآخر كان يهز رأسه، لكنه أنصت طوال الوقت كأن الكلمات البسيطة تخصه. أخيراً قال إن هناك أرباباً كثيرين وإن على المرء أن يضحي لهم جميعاً كي يَسْلم.

أجاب ساهاك بأن المصلوب لم يطالب بالأضاحي. طلب فقط أن يضحّي المرءُ بنفسه.

- ماذا تقول؟ يضحّي بنفسه؟ ماذا تقصد؟

قال ساهاك: أن يضحّي المرء بنفسه، في فرن صَهره العظيم.

- فرن صَهره العظيم؟

هز المراقب رأسه.

وقال بعد فترة: أنت عبدٌ بسيط، كلماتك مثل عقلك. أي أوهامٍ عجيبة! من أين التقطت هذه الكلمات الحمقاء؟

أجاب ساهاك: من عبد يوناني اعتاد أن يردّد هذه العبارات. الحق

أنني لا أعرف معناها.

- لا. أنا متأكد من ذلك. ولا أحد يعرف معناها. يضحّي بنفسه... في فرن صَهره العظيم... في فرن صَهره...

ظلّ يغمغم ما لم يعودا يسمعانه، واختفى في العتمة بين القناديل المتناثرة، كمن أضاع طريقه في أحشاء الأرض.

حار ساهاك وباراباس في ما جرى لهما. كان غير متوقّع تماماً إلى حد أنهما لم يكادا يصدقانه. كيف استطاع هذا الرجل أن يهبط إليهما؟ هل هو مراقب عادي؟ يتصرف هكذا! يسأل عن المصلوب، عن المخلّص! لا، لا يستطيعان أن يصدقا، لكنهما سعيدان، طبعاً، بما جرى لهما.

بعد هذا كان المراقب غالباً ما يتوقف ليتحدث مع ساهاك في مروره.

لم يتحدث البتة إلى باراباس. وجعل ساهاك يحكي له أكثر عن ربّه، وحياته، ومعجزاته، وعن مبدئه الغريب في أن على أحدنا أن يحبّ الآخر. وفي أحد الأيام قال المراقب:

- أنا أيضاً فكرت طويلاً في الإيمان بهذا الإله. لكن كيف أستطيع؟ كيف بمقدوري أن أومن بشيء غريب هكذا؟ أنا الذي يراقب العبيدَ، كيف أومن بعبدٍ مصلوبٍ؟

أجاب ساهاك بأن ربّه مات حقاً ميتةَ عبدٍ، إلا أنه في واقع الأمر كان الإله نفسه. أجل الإله الواحد الأحد. إن آمن أحد به لم يستطع أن يعبد آخر.

- الإله الواحد الأحد؟ وقد صلب مثل عبدٍ! أي ادّعاءٍ! أتعني لزوم إلهٍ واحدٍ، وأن الناس صلبوه!

قال ساهاك: نعم. ها هو ذا الأمر.

حدق إليه الرجل، مصعوقاً، وهزَّ رأسه كعادته وهو يبتعد، مختفياً في عتمة ممر المنجم.

وقفا يتبعانه بالنظر. لمحاه لحظةً في نور القنديل التالي، ثم اختفى.

كان المراقب يفكر بذلك الإله الذي كلما صعب فهمه سمع به أكثر. لنفترضْ أنه كان حقاً الإله الواحد الأحد؟ إذاً، على المرء أن يصلي له، لا لإله آخر؟ لنفترض أن هناك إلهاً واحداً قديراً مسيطراً على السماوات والأرضين نشر تعاليمه في كل مكان، حتى هنا في العالم السفلي، تعاليمه الرفيعة العصيَّة على الفهم؟ ليحببْ أحدكم الآخر... ليحببْ أحدُكم الآخر... لا، مَنْ يستطيع فهمها؟

توقّف في الظلمة، بين قنديلين، ليتأمل الأمرَ، وحيداً. وبغتةً أُلهِمَ ما يجب عليه فعله. يجب أن يخرج العبد المؤمن بالإله المجهول من هذا المنجم الذي لا ينجو فيه أحد في النهاية، ويجعله يعمل عملاً آخر، تحت الشمس في الأعلى. هو لم يفهم هذا الإله، وكذلك تعاليمه، مستحيل عليه هذا، لكنه سينفذ فعله. لكأنها إرادةُ الإله.

عندما صعد إلى سطح الأرض، ذهب للقاء المراقب المكلف بالعبيد العاملين في الأراضي التابعة للمنجم. وعندما عرف هذا ما يريد (وهو رجل متهلل الوجه كالفلاح، لكنه ذو فمٍ واسعٍ قبيح) أوضح أن الفكرة لا تروق له. إنه لا يرغب في استخدام عبد من المنجم. الواقع أنه بحاجة إلى عدة عبيد، خاصة الآن، مع حراثة الربيع، إذ لا توجد كالعادة ثيران كافية للقيام بأعمال الجر. لكنه لا يريد أحداً من المناجم. فهم غير نافعين، لا قوة عندهم، والعبيد الآخرون لايريدونهم - ما حاجتهم إلى أن

يكونوا في السطح؟ لكنه اقتنع في نهاية الأمر بطلب الرجل الأكبر سناً المتمتع بقدرة عجيبة على تحقيق ما يريد. عاد إلى المنجم.

في اليوم التالي تحدث مع ساهاك، عن إلهه، أكثر من المألوف. ثم أخبره بما رتبه له. عليه أن يذهب إلى الحارس في قاع العِرْق كي يفكّ أغلاله ويفصله عن زميله. ثم أنه سوف يؤخذ إلى أعلى ويوضع تحت إمرة الرجل الذي سوف يعمل معه منذ الآن.

نظر إليه ساهاك غير مصدّق ما سمعته أذناه. أحقٌّ هذا؟ قال المراقب نعم، وإن هذا هو ما أراده إله ساهاك منه.

ضغط ساهاك بيديه على صدره، ووقف للحظة صامتاً. ثم قال إنه يرفض أن يفصل عن زميل سجنه، لأن لهما إلهاً واحداً وإيماناً واحداً.

نظر المراقب إلى باراباس مندهشاً.

- إيمان واحد؟ هو؟ لكنه لم يركع ولم يصلِّ، مثلك!

- لا. قال ساهاك، مع أن هذا ليس تمام الصحة. غير أنه كان وثيق الصلة، بطريقة مختلفة، إذ وقف بجانب صليبه وهو يتعذب ويموت عليه. ولقد رأى هالةً من نورٍ حوله مرةً، وملاكاً من نار أزاح الصخرة عن القبر كي يقوم من الجحيم. باراباس هو مَنْ فتح عيني على مجده.

كل هذا كان أكبر من أن يفهمه المراقب الذي هز رأسه حائراً والتفت إلى باراباس، إلى الرجل ذي الندبة تحت العين، المتجنب التقاء النظرة، والواقف حتى الآن مشيحاً. أهو من أتباع إله ساهاك؟ هذا مستحيل أكيداً. هو لم يحببه. وليست له رغبة أيضاً في إخراجه من المنجم. لكن ساهاك قال:

- أنا أرفض أن انفصل عنه.

وقف المراقب مغمغماً لنفسه، ناظراً إلى باراباس من طرف عينه. بعد حين وافق متردداً على ما أراده ساهاك، فالاثنان سيظلان معاً مثل ما كانا. ثم ابتعد عنهما في وحدته.

حين تقدم ساهاك وباراباس إلى الحارس في الوقت المحدد، فكت عنهما السلاسل، وأخرجا من المنجم. وعندما طلعا إلى نور النهار وأبصرا الشمس الربيعية تشرق على سفح الجبل المتضوع بالآس واللافندر، والحقول الخضر في الوادي، والبحر وراءها، ركع ساهاك على ركبتيه وصاح منتشياً:

- لقد جاء! لقد جاء! ها هو ذا ملكوته!

النخّاس الذي كان أتى ليأخذهما نظر إليه فاغر الفم، وهو راكع. ثم رفسه بقدمه يأمره بالوقوف. قال:

- تعال الآن...

-١٢-

كانا مناسبين جداً لأن يوضع عليهما النير فيجرا المحراث، إذ طالما شدّا معاً، حتى ألف أحدهما الآخر، مثل بغلين. كان نحيلين أخرقين، نصف حليقي الشعر، وصارا أضحوكةً لدى العبيد الآخرين؛ ومن أول نظرة يتضح من أين جاءا. لكن أحدهما سرعان ما استعاد عافيته، كان متين البنية بطبيعته، وبعد فترة صارا يجران المحراث جيداً. رضي المراقب عنهما، فلم يكونا بالغي السوء، إذا اعتبرنا أنهما جاءا من المنجم.

أما هما فقد كانا جدّ مغتبطين لما جرى لهما. ومع أن عليهما أن يكدحا من الصباح حتى المساء كالثيران، فإن حالهما اختلف أشد الاختلاف عما مضى. إن مجرد كونهما في الهواء الطلق، يتنفسانه، جعل كل شيء أسهل. ابتهجا بالشمس، مع أن جسديهما الناحلين يتصببان عرقاً، ومع أنهما يعاملان كالماشية، وليس أفضل من قبل حقاً. السوط يئز فوقهما كما كان في المنجم، وعلى ساهاك بخاصة، الذي لم يكن مثل باراباس قوياً. لكنهما، على أي حال، عادا إلى الحياة كما هي. يعيشان على الأرض مثل الكائنات الأخرى، وليس في الأسفل، مع الظلام المستديم. الصباح والمساء يجيئان، وهما يريانهما، ويبتهجان

لهما. غير أنهما عرفاً جيداً أن ملكوت الله لم يأتِ بعد.

تدريجاً، أخذ العبيد الآخرون يبدِّلون موقفهم إزاءهما، فلم يعودوا ينظرون إليهما كنوع من الحيوان عجيب. نما شعرهما، وصارا مثل الآخرين، أقل عرضةً للملاحظة. الأمر المرموق فيهما، ليس كونهما جاءا من المناجم، وإنما نجاتهما من الجحيم الذي حُكم عليهما به. والواقع أن هذا الأمر هو الذي أثار دهشة الآخرين منذ البداية، مع إعجاب متردد لم يفصحوا عنه حاولوا أن يعرفوا من الاثنين حقيقة ما جرى، لكنهم لم يفلحوا. فالقادمان الجديدان ما كانا ثرثارين، وكانا في ما يخص هذه المعجزة متكتمين. كانا غريبي الأطوار إلى حد ما، ومتلازمين.

ليس عليهما أن يفعلا هذا الآن. فلم يعودا مغلولين معاً. بمقدورهما أن يصادقا من شاءا إن أرادا، وألا يأكلا ويرقدا معاً. لكنهما ظلا متلازمين يسيران معاً كأنهما متلاصقان. وهذا أمرٌ أكثر غرابةً، إذا لاحظنا أن حديثهما المشترك أمسى أكثر صعوبةً. كانا يظهران متلاصقين، مع أنهما كانا ينفصلان.

في العمل كانا معاً. وليس في الأوقات الأخرى، حين يمكن الاختلاط مع العبيد الآخرين. إن خلاصهما من حالة التلازم المفروض، جعلهما لا يستغربان الحفاظ على رفقتهما. لقد ألفا أن يكونا معاً، واعتادا السلسلة وإن لم تكن موجودة الآن. وعندما يستفيقان في عتمة الليل ويشعران أنهما غير مسلسلين فإن خوفاً ما يعتريهما، حتى اقتنعا بأن عليهما، في الأقل، أن يتمددا إلى جانب بعضهما، مثل ما كانا، قبلاً.

ولقد ارتاحا لهذا الاقتناع.

أبشر بطول سلامة، يا باراباس! أتظنك تعيش حتى ترى ذلك؟ قد يكون الأمر هكذا، له، هو! أغرب شيء. ليس من امرئ مثله أسوأ مناسبة من أن يربط مع شخص آخر. لقد ربط ضد إرادته، بل بسلاسل حديد. حتى لو ذهبت السلسلة، فإنه محتفظ بها، احتفاظاً ما. حتى كأنه عاجز عن المضي بدونها كما يظهر. مع أنه ينترها طبعاً في مسعى للتخلص.

غير أن لساهاك شعوراً مختلفاً. على الضد من ذلك. فهو يتألم لأن ما بينهما لم يعد مثل ما كان. لم حدث هذا؟

لم يتكلما، البتة، عن معجزة إنقاذهما من المناجم، من الجحيم. في اليوم الأول، أو اليومين الأولين، تكلما، لكن ليس بعد ذلك. ساهاك قال، حينها، إن منقذهما كان ابن الله، مخلص الجميع.

نعم، أنقذا... طبعاً أنقذا... مع أن ساهاك، في الواقع، هو الذي أنقذه مخلصه، ابن الله. لكن باراباس أنقذ بساهاك. ألم يكن هذا حقاً؟ ألم يتم الأمر هكذا؟

هـ.... م... م... يصعب القول.

باراباس، على أي حال، شكر ساهاك لإنقاذه. لكن، هل شكر الله؟ نعم، فعل ذلك بالتأكيد؟ لا أحد متأكد.

حزن ساهاك لأنه عرف القليل عن باراباس، وهو المحبّ له. وتألم كثيراً لأنهما لم يعودا يصليان معاً، كما كانا فعلا في المنجم، في الجحيم. كيف أحبّ أن يفعل ذلك؟ لم يسأله. هو لم يفهم فقط.

أمورٌ عدة لدى باراباس لا يمكن فهمها. لكنه هو مَنْ رأى المخلص يموت، ورآه يقوم من الموت، ورأى هالة النور السماوي حوله أيضاً. مع

أنهما لم يعودا يتحدثان في الموضوع...

حزن ساهاك - لكن ليس على حاله. وجهه الناحل الملوّح تحت شعره ناصع البياض، كان مليئاً بالندوب من شرار أفران الصهر، ولسع السياط خطط جسده الهزيل. لكنه لم يحزن على حاله. بل على الضد من ذلك، هو سعيد بحاله. وبخاصة الآن، بعد أن دبر الرب هذه المعجزة له، فأخرجه إلى الشمس، وإلى ليلك الحقول التي تكلم هو نفسه عنها كلاماً جميلاً.

لقد دبّر المعجزة ذاتها لباراباس أيضاً. لكن باراباس ينظر متضايقاً إلى العالم الماثل أمام عينيه، ولا أحد يعرف بماذا يفكر.

هكذا كانت علاقتهما في المرحلة الأولى من وقتهما في الأعلى.

عندما انتهت حراثة الربيع، كُلِّفا بالعمل على النواعير التي يجب أن تدور مع بداية الحرّ، وإلا جفّ كل شيء. ذاك أيضاً كان عملاً شاقاً. وفي ما بعد، مع الحصاد نقلا إلى العمل في الطاحونة، وهي إحدى البنايات المحيطة بمقر الحاكم الروماني، والمؤلفة مع القرية المحلية القذرة بلدةً صغيرةً حول ميناء الشحن. هكذا صارا عند البحر مباشرة.

وهنا، داخل الطاحونة، التقيا بالأعور. كان عبداً متين البنية، قصير شعر الرأس، مرمدّ الوجه، مغضنه، ملتوي الفم. عينه الواحدة زائغة النظر، أما الأخرى فقد فقئت لأنه سرق بضع كيلات من الطحين مرةً. لهذا كان يحمل نيراً خشبياً عريضاً حول عنقه. كان يملأ الغرارات طحيناً وينقلها إلى المخزن. عمله، ولونه الفأري، ومظهره الوضيع، كلها تجعله غير ذي شأن. لكنه لسببٍ ما، كان الأبرز مقارنةً بمعظم الآخرين، ربما بسبب ما يحسه المرء من قلقٍ غريبٍ، وضيقٍ، في حضوره. غيابه وحضوره معروفان دائماً، وحتى في التفاته يحس المرء بنظرة عينه

الوحيدة. ونادراً ما التقاه أحد، وجهاً لوجه.

لم يعر أدنى انتباه للقادمين الجديدين، بل لم يبد أنه رآهما. ولم يشعر أحد بأنه لاحظ مع سخرٍ هيّنٍ أنهما كلفا بأثقل رحى. ربما لم يرَ أحد أنه ابتسم، وأن فمه المرمّد الأدرد أوشك أن يبتسم. كانت هناك أربع مطاحن، يدير كل مطحنة عبدان. الحمير، في العادة، تدير الرحى، لكن الحمير أقل عدداً هنا من البشر الذين هم أكثر عدداً وأرخص إدامة. لكن ساهاك وباراباس يعتقدان أن الطعام هنا أوفر مقارنةً بما اعتاداه، بالرغم من العمل الشاق. النخاس لم يعاملهما معاملة في غاية السوء، كان رجلاً ممتلئاً، طيب المزاج، يسير وسوطه خلف ظهره بدون استعمال. الشخص الوحيد الذي كان يسوطه هو عبد أعمى شيخ في آخر خطوات حياته.

البناية كلها، في الداخل، بيضاء بالطحين الذي كسا كل موضع مع مرّ السنين، على الأرضية، والجدران، وعلى كل بيوت العنكبوت في السقف.

كان الهواء كثيفاً بغبار الطحين، مليئاً بالهدير الأجوف للرحيات الدوارة معاً، في المطاحن الأربع. العبيد كلهم يعملون عراةً، عدا الأعور الذي يلف وزرةً من الخيش، وينسل هنا وهناك داخل المطحنة مثل فأرٍ. النير الخشب حول عنقه يمنحه مظهرَ مَنْ اصطيد لكنه أفلت بطريقة ما. ويقال إنه يأكل الطحين من الأكياس حين يكون وحيداً بالرغم من النير الذي يفترض أنه يمنعه. يقال أيضاً إنه يفعل ذلك، لا من الجوع، بل تحدياً، فقد عرف أنه لو ضبط فلسوف تفقأ عينه الأخرى، ويكلف إدارة الرّحى، تماماً مثل عمل الأعمى العجوز، وهو عمل فوق طاقته يكاد يملؤه

رعباً كالظلام المنتظر في حالة أنهم أمسكوه يأكل ثانية. لكن من الصعب معرفة الصحيح في هذا كله.

لا. هو لم يكن مهتماً اهتماماً خاصاً بالقادمين الجديدين. راقبهما مراقبته الخبيثة، كما يراقب من سواهم، وانتظر ما يحدث. ليس لديه ضغن إزاءهما. لاشيء خاصاً. سمع أنهما سجينان من المنجم. لم يسبق له أن التقى بأحد من هناك. لكن ليس لديه شيء ضد سجناء المنجم. لا شيء خاصاً لديه ضد أي أحد.

باعتبار أنهما كانا في مناجم النحاس، فهذا يوجب أن يكونا مجرمين خطرين، مع أن أحدهما لا يكاد يبدو هكذا. وبالمقارنة، يبدو الآخر مجرماً خطراً يجهد في إخفاء أمره. أحدهما خطير، والآخر بسيط، لكن كيف خرجا من المنجم؟ من الجحيم إلى أعلى؟ مَنْ ساعدهما؟ هذه هي المسألة. لكن المسألة لا تعنيه.

إن انتظرت طويلاً، أتاك ما أردت، دوماً.

التفسير آتٍ لاريب، بطريقة أو بأخرى. يقال كل شيء يفسِّر نفسه. على المرء أن يفتح عينه طبعاً. وهذا ما فعله.

وهكذا حدث أن رأى الرجل الطويل النحيل ذا العينين البقريتين يركع ليلاً في الظلام ويصلي. لماذا فعل ذلك؟ طبعاً كان يصلي لإله. لكن أي إله؟ أي نمط من الآلهة يصلي له هكذا؟

الأعور عرف آلهةً كثيرة، بالرغم من أنه لم يُصلِّ لواحدٍ منها بتاتاً. ولو طرأت عليه الفكرة بالمصادفة، لفعل كما فعل سواه، ولصلّى أمام صورتهم في المعبد الذي ينتسبون إليه. لكنَّ هذا العبد الغريب صلّى لإله اعتقد تماماً أنه أمامه في الظلام، وتكلم معه كمن يتكلم مع كائن حي،

تصوّر أنه لاحظه. أمرٌ عجيبٌ. بإمكانه أن يسمعه يهمس ويصلي خاشعاً في العتمة، لكن بمقدور أي امرئ معرفة أن لا إله هناك. الأمرُ كله تصوّر محض.

لا يمكن أن يهتمَّ أمرؤ بما لا يوجد، لكن الأعور بعد أن اكتشف ما اكتشف، شرع يتحدث مع ساهاك بين حين وآخر ليعرف أكثر عن هذا الإله الخارق. وشرح ساهاك الأمور له بأحسن ما يستطيع. قال إن إلهه في كل مكان حتى في الظلام. وبوسع المرء أن يناديه من أي مكان ويحس بحضوره. بل قد يشعر به المرء داخل صدره، وهذا أروع ما يكون. أجاب الأعور إن إلهه إله مومرق حقاً.

قال ساهاك: نعم. إنه كذلك.

بدا الأعور يفكر برهةً في ما سمع، عن إله ساهاك الخفيّ، لكن القدير، ثم سأله إن كان هو الذي ساعده في الخروج من المنجم؟

قال ساهاك: نعم. إنه هو.

وأضاف أنه إله كل المضطهدين، وأنه سيحرِّر كل العبيد من سلاسلهم ويغفر لهم ويجازيهم خير جزاء. لقد أراد ساهاك أن يبشر بدينه وأحس أن الآخر يتمنى أن يسمع هذا.

قال الأعور: أوه!

أدرك ساهاك، أكثر فأكثر، أن العبد القميء، الذي لا يعبأ به أحد، والذي فقئت عينه، أراد أن يسمع عن خلاصه وخلاص الجميع، وأن عليه أن يحدثه عن إرادة الله. لهذا قام بذلك دائباً، وإن بدا باراباس غير مرتاح لهذا. وأخيراً، في إحدى الأماسي، وبينما هما جالسان على رحى بعد عمل اليوم، أراه النقش على قفا قرص عبوديته. تم ذلك حين

استفسر الأعور عن اسم الإله المجهول - إن كان الجهر به ممكناً - فأخبره ساهاك، وللبرهنة على قدرة ربه وعظمته سمح له برؤية العلامات السرية التي تمثل الاسم المقدس. نظر الأعور إلى النقش مهتماً، واستمع إلى حكاية ساهاك عن العبد الإغريقي الذي حفره، والذي عرف معنى كل خط فيه. من المستحيل، أن يستطيع أحد، بهذه الطريقة، أن يعرف علامة الله.

ساهاك نظر ثانيةً إلى النقش ثم أداره إلى الداخل ثانيةً. وعندما ثبته على صدره قال مبتهجاً إنه عبد الله، منتسبٌ إليه.

قال الأعور: أوه.

بعد فترةٍ استفسر منه إن كان الآخر القادم من المناجم يحمل هذا النقش أيضاً في قرص عبوديته.

قال ساهاك: لِمَ لا؟ نعم.

أومأ الرجل القميء برأسه وقال نعم طبعاً، مع أنه كان في تمام التأكد من أنهما ليسا ذوي دين واحد وإلهٍ واحد، فذلك المجرم ذو الندبة تحت العين لم يصلِّ بتاتاً. استمرا يتكلمان عن هذا الإله الغريب، وفعلا ذلك مرات عدة بعد هذا الحديث، مما جعل ساهاك يشعر بأنهما صارا وثيقي الصلة. لقد كان مصيباً في الإفضاء بسرّه العظيم إلى الآخر، ومن المؤكد أن الله نفسه ألهمه هذا.

عظيمة كانت دهشة المطحنة حين أعلن النخاس ذات صباح أن ساهاك وبارباس استدعيا للظهور أمام الحاكم نفسه في وقت محدد من اليوم، وأنه حائر مثل الآخرين، جاهل بما يكمن في الأمر.

عبدان حقيران في الظهور الفعلي للحاكم الروماني! كان عليه أن

يسوقهما إلى هناك، وهو يشعر بالقلق، لأنه لم يضع قدمه قط في مقرّ الجبّار. وعلى أي حال، ليست له علاقة بالأمر. إنه مكلف بإيصالهما، حسب، إلى هناك. انطلقوا في الموعد المحدد، ووقف كل من في المطحنة يتابعونهم بالنظر، حتى العبد القميء الذي يشبه الفأر، والعاجز عن الابتسام بسبب فمه الملتوي - وقف أيضاً يتابعهم بنظرة من عينه الوحيدة.

ما كان ساهاك وباراباس ليستطيعا شق طريقهما في الأزقة التي يجهلانها تماماً، ولهذا سارا خلف نخّاسهما مباشرةً، متلازمين كالعادة، وكأنهما سُلِكا في السلاسل من جديد.

عند وصولهما إلى المقر الكبير، سمح لهما بالمرور، عبر أبواب من خشب الأرز المزخرف، عبد أسود هائل، مربوط بسلسلة إلى عضادة الباب. اكتفى بإيصالهما إلى المجاز وسلّمهما إلى ضابط قادهما بدوره عبر باحة مشمسة إلى غرفةٍ متوسطة الحجم مفتوحةٍ على الباحة. هناك، فجأةً، وجدوا أنفسهم، وجهاً لوجه، مع الروماني.

خرَّ الثلاثة ساجدين، جباههم تمسّ الأرض، كما وجَّههم النخاس، مع أن ساهاك وباراباس رأيا العار في إذلال المرء نفسه إلى هذا الحد، أمام شخص، هو في النهاية، مخلوق بشري. لم يجرؤوا على الوقوف إلا بعد أن أُمِروا. الروماني الذي كان مائلاً إلى وراء، على كرسي في طرف الغرفة القصيّ طلب منهم الاقتراب، ففعلوا ذلك مترددين، متشجعين تدريجاً في النظر إليه.

كان رجلاً متين البنية، في حوالي الستين من عمره، بوجه ممتلئ غير مترهّل، وحنك عريض، وفم ينبئك فوراً أنه فم الآمر. كانت عيناه حادّتي

الملاحظة، لكنهما ليستا عدوانيتين. العجيب في الأمر هو أنه غير مخيفٍ.

استفسر من النخّاس أولاً، عن سلوك العبدين، وعما إذا كان راضياً عنهما. أجاب الرجل متلعثماً أنه راض عنهما، مضيفاً، وهو يراعي سلامته، أنه يأخذ عبده دائماً بالشدة. من المستحيل معرفة إن كان هذا السيد النبيل مرتاحاً إلى ما قاله النخّاس، فقد ألقى نظرةً سريعةً على الجسم الممتلئ، وصرفه بإيماءة من يده - بمقدوره الانصراف. لم يكن الرجل ضد هذا، فانصرف حالاً، وفي تعجله فقد أصول الانصراف، إذ كاد يولي سيِّده ظهرَه.

آنذاك التفت الأخير إلى ساهاك وباراباس وشرع يسألهما عن موطنهما، وسبب عقابهما، وكيف خرجا من المنجم، ومن دبّر ذلك. طوال الوقت كان يتحدث إليهما برفق. ثم وقف، وسار عبر الأرضية، وقد دهشا لطوله الفارع. ذهب إلى ساهاك وأمسك بقرص عبوديته، ونظر إلى النقش، مستفسراً عما إذا كان يعرف معناه. أجاب ساهاك إنه ختم الدولة الرومانية. قال الحاكم بإيماءة من رأسه إن هذا صحيح، ومعناه أن ساهاك ملك للدولة الرومانية. ثم قلب القرص المعدن، ونظر إليه بتمعن، لكن بدون استغراب للنقش السري في القفا. قرأ: «يسوع المسيح»، وتعجب ساهاك وباراباس لاستطاعته قراءة العلامات، وفكٍّ شفرة اسم الله المقدس.

سأل: مَنْ ذاك؟

أجاب ساهاك وقد ارتجف صوته قليلاً:

- إنه إلهي.

– آه... اسم لا أتذكر أنني سمعت به من قبل. لكنّ هناك آلهةً كثيرين، يستعصي عددهم جميعاً. أهو إله منطقتك الأصلية؟

أجاب ساهاك:

– لا. إنه إله الجميع.

– الجميع؟ هل قلت ذلك؟ الأمر ليس سيئاً إطلاقاً. وأنا لم أسمع به البتة. يمكنني القول إنه يتكتّم.

قال ساهاك:

– نعم.

– إله الجميع. في هذه الحال ينبغي ألا يكون قليل الحول. على أي أساس أقام قوته؟

– على الحب.

– الحب؟... حسناً، لمَ لا. الأمر لا يهمني على أي حال. بإمكانك أن تؤمن كما تشاء. لكن أخبرني، لماذا تحمل اسمه على قرص عبوديتك؟

أجاب ساهاك مرتجف الصوت ثانية:

– لأني من عباده.

– حقاً؟ من عباده؟ كيف بمقدورك أن تفعل هذا؟ ألست عبدَ الدولة كما يقضي هذا الختم؟ ألست عبدَ الدولة؟

لم يجب ساهاك. اكتفى بالبقاء واقفاً ينظر إلى الأرضية.

أخيراً قال الروماني – لكن بدون خشونة:

– عليك الإجابة. ألا ترى أن عليك أن تكون واضحاً تماماً في هذه المنطقة؟ هل أنت ملك الدولة؟ أخبرني الآن.

قال ساهاك بدون أن يرفع بصره:

- أنا ملك الرب إلهي.

وقف الروماني ينظر إليه، ثم رفع رأس ساهاك، ونظر في وجهه المحترق، الوجه الذي كان عند أفران الصهر. لم يقل كلمةً، وبعد حين، بعد أن رأى ما أراد، أطلق حنك الرجل الآخر.

ثم ذهب ووقف أمام باراباس، وبينما أدار قرص العبد بالطريقة ذاتها، قال:

- وأنت؟ أتؤمن أيضاً بهذا الإله المحب؟

لم يجب باراباس.

- أخبرني، هل تؤمن؟

هز باراباس رأسه.

- أنت لا تؤمن؟ لمَ، إذاً، تحمل اسمه على قرصك؟

باراباس سكت كالسابق.

- أليس هو إلهك؟ أليس هذا ما يقضي به النقش؟

- أنا بلا إله.

أجاب باراباس، في نهاية الأمر، جواباً خافتاً لايكاد سمع. لكن ساهاك والروماني سمعاه. ورمقه ساهاك بنظرة ملأى يأساً وألماً ودهشةً لكلماته التي لا تصدق، حتى لقد شعر باراباس بأن النظرة تخترقه حتى الأعماق، مع أنه لم يواجه عيني الآخر.

الروماني أيضاً بدا مندهشاً. قال:

- لكني لا أفهم. لمَ، إذاً، تحمل هذه الـ «يسوع المسيح» منقوشةً على قرصك؟

قال باراباس متجنباً النظر إلى الرجلين كليهما:

- لأني أريد أن أومن.

نظر الروماني إليه، إلى وجهه الملوَّح والندبة تحت العين، إلى الفم القاسي الخشن المحتفظ بقوّته. الوجه خال من التعبير، ولم يكن متأكداً من أنه سيجد أي تعبير حتى لو رفع الرأس كما فعل مع الآخر. كما لم يخطر على باله أن يفعل ذلك مع هذا الرجل. لماذا؟ إنه لا يعرف

التفت، ثانيةً، إلى ساهاك

- أتدرك، تماماً، ما يترتب على قولك؟ أتعرف أن هذا يعني أنك تضع نفسك ضد قيصر؟ ألا تعلم أنه هو إله أيضاً، وأنك عبده، وأنك تحمل ختمه على قرصك؟ وأنت تقول إنك تعود إلى إله آخر مجهول نقشت اسمه على قرصك لتظهر أنك لست عبد قيصر، بل عبده. أليس الأمر هكذا؟

أجاب ساهاك بصوت مهتز، لكنه غير مرتجف كالسابق:

- نعم

- وأنت متمسك بهذا؟

- نعم.

- لكن، أتعرف ما أنت صانعٌ بنفسك، في فعلك هذا؟

- نعم. أنا أعرف.

توقف الروماني، مفكراً بإله هذا العبد، الذي سمع عنه مؤخراً الكثير، مجنون أورشليم الذي ترك نفسه يموت ميتةَ عبدٍ. «فكّوا كل الأغلال»... «عبد الله الذي سيجعله حراً»... مبدأ غير مؤذٍ في الواقع... ووجوه مثل وجه هذا العبد لاتروق لمالك عبيد...

- إن أنكرت دينك، لن يلحقك أذى. أتفعل ذلك؟

- لا أستطيع.

- لِمَ لا تستطيع؟

- لا أستطيع أن أنكر إلهي.

- شخص استثنائي... أكيد أنك تعرف العقوبة التي ترغمني أنت على إصدارها.

أأنت شجاع حتى الموت في سبيل إيمانك؟

قال ساهاك هادئاً:

- لست مَنْ يقرر ذلك.

- لكن لن ينقذك أحدٌ، إن لم تنكر إلهك هذا. ستفقد حياتك.

- لا أستطيع أن أفقد الرب إلهي.

هزَّ الروماني كتفيه.

- إذاً، ليس بمقدوري أن أفعل أكثر من ذلك لأجلك.

قال هذا، وهو يتجه إلى الطاولة التي كان جالساً إزاءها حين جاؤوا. ضرب سطحها المرمر بمطرقة عاج صغيرة.

أضاف كأنه يخاطب نفسه أيضاً:

- أنت مجنون مثل إلهك.

وبينما كانوا ينتظرون قدومَ الحارس، ذهب الحاكم إلى باراباس، وقلب قرص عبوديته، ثم سحب خنجره وأزال بطرفه كلمتي «يسوع المسيح». قال:

- لا لزوم لها، مادمت لا تؤمن به.

في أثناء ذلك، رمق ساهاك باراباس بنظرة ذات تعبير تغلغلَ فيه

مثل النار، تعبير لن ينساه أبداً.

هكذا اقتاد الحارس ساهاك، وترك باراباس واقفاً في مكانه. امتدحه الحاكم لحسن تصرفه وقال إنه سيكافئه على ذلك. سوف يذهب إلى المكلف بأمر العبيد هنا في القصر، ليتولى القيام بعملٍ آخر أفضل.

نظر باراباس إليه نظرةً سريعةً ووجد الحاكم تعبيراً ما في عيني الرجل وإن لم يكن مؤذياً. كان البعض يرتعش هناك مثل سهمٍ لن ينطلق أبداً.

وهكذا مضى باراباس ليفعل ما أُمِرَ به.

-١٣-

عندما صُلِبَ ساهاك، وقف باراباس مختفياً وراء شجيرات طَرْفاء على مبعدة يسيرة، كي لا يتمكن صديقه المعلق على الصليب من رؤيته. لكن ساهاك كان عذب حتى لم يعد في حال يسمح بذلك. لقد عذِّب بحكم العادة، ولأن من عذّبوه ظنوا، بكل بساطة، أن الحاكم نسي أن يأمرهم. والواقع أن الحاكم لم يقصد شيئاً من هذا القبيل، وإن لم يكن ليهتم بإصدار أمر مخالف. لهذا، وابتغاءَ السلامة، فعلوا ما اعتادوه. لم تكن لديهم فكرة عن سبب الحكم على العبد، ولا هم مهتمون بأن يعرفوا. لقد كانوا يؤدون ما يؤدون، باستمرار.

نصف شعره حليق ثانيةً، والشعر الأبيض ملطخ بالدم. الوجه خال من التعبير، لكن باراباس الذي يعرفه جيداً فهم ما كان سيعبر عنه لو استطاع. وقف ينظر إليه، طوال الوقت، بعينين متّقدتين. وإن كان القول إن عيني باراباس متّقدتان، فهو يصح الآن. كما حدق إلى الجسم الهزيل ولم يستطع أن يحول النظر، حتى لو أراد. كان الجسم من الهزال والضآلة بحيث يصعب تخيل أنه ارتكب جريمةً. لكن على الصدر، حيث كل ضلع ناتئ كانت شارة الدولة مختومة بالكي، لتبين أن القضية خيانة عظمى. أما قرص العبد فقد أخذ، أولاً بسبب المعدن، ثم لانتفاء الحاجة إليه الآن.

مكان الإعدام كان نشزاً من الأرض صغيراً خارج البلدة، محاطاً هنا وهناك في دانيه ببضع أشجار وقليل من الدغل. خلف واحدةٍ وقف باراباس الطليق. لم يكن ثمة سواه، وسوى المكلفين التنفيذَ، فلا أحد مهتم بمشاهدة صلب ساهاك. غالباً ما يُجمع الناس حين يكون الضحية مذنباً بجريمة شنعاء. لكن ساهاك لم يقتل، ولم يفعل شيئاً آخر، ولا أحد يعرفه، أو يعرف ما فعل.

حل الربيع الآن، تماماً مثل ما حلّ يوم خرجا من المنجم، وخر ساهاك راكعاً يهتف: «لقد جاء!»، كانت الأرض خضراء، حتى نَشَزَ الإعدام كان مليئاً بالزهور.

الشمس مشرقة على الجبال وعبر البحر الممتد في الداني. لكنها الظهيرة، والحرارة شديدة، وأسراب ذباب تتطاير مع أي حركة على المنحدر المنتن. كان الذباب يغطي جسد ساهاك، وكان أعجز من أن يرد الذباب عنه. لا. لم يكن موت ساهاك عظيماً أو نبيلاً.

ولهذا فمن العجب المحض أن يتأثر باراباس شديد التأثر به. لكنه هكذا. لقد تتبّعه بعينين حريصتين على أن تتذكرا كل تفصيل - العرق المتحدِّر من الجبين، وأسفل الإبطين، ولهاث الصدر المختوم كياً بختم الدولة، والذباب الذي لا يرده أحد.

الرأس منكّس، والمحتضر يئن أنيناً ثقيلاً ويتأوه، حتى أن باراباس سمع كل نَفَسٍ من مكمنه. هو نفسه كان يتنفس بتقطع وثقل، وفمه نصف فاغر مثل صديقه المعلّق. بل ظنّ أنه أحس بالظمأ، مثل ما أحسّ الآخر بدون شك. أمرٌ جيدٌ أن يشعر باراباس كهذا، لكنه كان مغلولاً معه لزمن مديد. فكّر بأنه لا يزال متحداً مع المصلوب بالسلسلة الحديد ثانية.

كان ساهاك يريد أن يتفوه بشيء الآن، يريد أن يقول، ربما أراد ماءً، لكن لم يعرف أحد ما أراد. وباراباس نفسه لم يسمع ما كان يقوله بالرغم من إرهافه السمع. ثم أنه يقف الآن جدّ بعيد. بمقدوره طبعاً أن يندفع صاعداً المنحدرَ إلى الصليب، ليصرخ بصديقه هناك، يسأله عما يريد، إن كان بمقدوره أن يفعل شيئاً له – ولكان باستطاعته في الوقت نفسه أن يرد عنه الذباب. لم يفعل شيئاً. اكتفى بالتحديق إليه، متّقد العينين، نصف فاغر الفم، من ألم الآخر.

لم يمر وقت طويل على هذا حتى صار واضحاً أن المصلوب لن يعاني عذاباً أكثر. أمسى نَفَسُه أخفت، ولم يعد مسموعاً من موقف باراباس، والصدر لا يكاد يتحرك. بعد فترة همد تماماً، وصار بمقدور المرء أن يقول إن ساهاك مات. لقد أسلم الروح، بلا ظلام يهبط، ولا معجزة تتمّ. لا أحد ممن ينتظرون موته لاحظ شيئاً، كانوا جاثمين يلعبون النرد تماماً مثل ما فعلوا، في موقف مثل هذا، منذ زمن طويل. لكنهم هذه المرة، لم يتطلعوا إلى أعلى، ولم ينتبهوا حتى قليلاً إلى أن الرجل الذي على الصليب، قد مات. بل إنهم لم يلحظوه. الوحيد الذي فعل ذلك كان باراباس. وعندما أدرك الأمرَ، أطلق آهةً وسقط على ركبتيه كأنه يصلّي.

غريب... لو فكّر المرءُ بمدى سعادة ساهاك، حين يرى ذلك، حياً. لكنه ميت الآن لسوء الحظ.

إن باراباس، على أي حال، لم يكن ليصلي، وإن يكن راكعاً. ليس عنده من يصلي له. لكنه، مع هذا، ظل راكعاً، فترة.

ثم أخفى وجهه الملوح، ذا اللحية الشائبة، بين يديه، كأنه يبكي.

فجأةً، أطلق أحد الجنود شتيمةً، عندما اكتشف أن المصلوب ميت، وأن كل ما عليهم أن يفعلوه هو إنزاله من الصليب، والعودة إلى بيوتهم. وهكذا فعلوا.

هكذا جرى صلب ساهاك، وهكذا وقف باراباس الطليق ينظر إليه.

حين تقاعد الحاكم من حاكميته وعاد إلى روما ليمضي ما تبقى من سني حياته، كان جمع ثروة طائلة أكثر من أي حاكم سابق في الجزيرة، لكنه في الوقت ذاته أدار المناجم والإقليم كله بصورة وفرت للدولة ربحاً لم يسبق له مثيل. عدد لا يحصى من المراقبين والنخاسين أسهموا في هذا النجاح، عبر أمور عدة، منها إحساسهم بالواجب، والشدة، بل القسوة، وبفضل هؤلاء كان ممكناً استغلال الثروات الطبيعية إلى الحد الأقصى، واستنزاف العباد والعبيد إلى الحد الأقصى. أما هو نفسه فلم يكن قاسياً البتة. حكمه كان شديداً، لا هو؛ وإن لامه أحد على الشدة فذلك بسبب الجهل، وبسبب أن ذلك اللائم لايعرفه. وبالنسبة لمعظم الناس كان شخصاً مجهولاً، شبه أسطوري. آلاف البشر التعساء في مناجم باطن الأرض، وعند محاريثهم في عاليها، في الحقول المفخورة بالشمس، تنفسوا الصعداء حين سمعوا برغبته في المغادرة، آملين، ببساطتهم، في أن حاكماً جديداً سيكون أفضل. لكن الحاكم نفسه غادر الجزيرة حزيناً آسفاً. لقد كان جدّ سعيد هناك.

أخذ معه العبيد الذين رأى أنه يحتاج إليهم لمنافعه، وبينهم باراباس. والحقّ أنه وضعه في اللائحة مراعاةً له وعطفاً عليه، لأن عبداً في مثل سنه لن يكون ذا نفع كبير له. لكنه أحب هذا العبد العاقل الذي سمح طواعيةً بأن يشطب اسم إلهه، فقرر أن يأتي هو أيضاً. ما كان

بمقدور أحد تصديق أن سيد باراباس كان في مثل هذه المراعاة والاعتبارات.

استغرقت الرحلة أطول من المعتاد، فالسفينة موسوقة تماماً، لكن بعد أسابيع من التجذيف المستمر دخلت تتهادى في مرفأ أوستيا، وعبيدها من كدحٍ ينزفون. الحاكم وصل إلى روما في اليوم التالي، متبوعاً بعد يوم أو اثنين بحاشيته وممتلكاته.

القصر الذي كان رَتَّبَ شراءه كان في أرقى الأحياء، وفي قلب المدينة.. كان متعدد الطوابق، مزيناً داخله برخامٍ مفوّف الألوان، ومؤثثاً بأفخر أثاث. باراباس الذي يسكن القبو مثل العبيد الآخرين لم يرَ البتة أكثر من هذا، لكنه عرف أن البيت واسع رائع. كان غير ملموس مادياً عنده تماماً. كلِّف عملاً هيناً، مشاغل بسيطة من كل نوع، وكل صباح كان يذهب برفقة عبيد آخرين مع المشرف على المطبخ، وهو شخص حرّ طويل القامة، إلى السوق، حيث يشتري هذا احتياجاته. وبهذه الطريقة تمكن من أن يرى الكثير من روما.

قد لايمكن القول إنه رآها فعلاً. كانت تمرق، وحسب، أمام عينيه، بدون أن يستجيب. وإذ يتدافع وسط الحشد، بالمناكب، في الأزقة، أو حين يمشي في الأسواق الضاجة، المكتظة ببشر لا يكاد يشق المرء سبيله بينهم، كان كل شيء يبلغه غريباً، غير متكوّن، حتى لكأنه يمشي في الضباب. العاصفة الصاخبة الجبارة لم تغدُ واقعاً فعلياً عنده، وكان يطوف فيها شارداً، غارقاً في تفكّراته. الرجال والنساء من كل أرض ورسّ مختلطون متمازجون، وأي امرئ غير باراباس، سيكون مأخوذاً بالحشد البشري، وكل الثراء والبهاء، وبالمباني الفخمة والمعابد التي بلا

عدد لكل إله يمكن تخيله، حيث النبلاء ينتقلون في محفّات غالية مذهبة ليعبد كل واحد منهم إلهه - حين لا يفضلون المخازن الفاخرة في فياسكارا، أو أحد الحمامات المتألقة. عينا أي شخص، عدا باراباس، كان يمكن أن تعكسا هذا كله. لكن عيني باراباس لم تعكسا شيئاً، ربما كانتا أكثر عوراً من أن تفعلا هذا، أما ما تريانه فإنه ينزلق عنهما مثل شيء لا يعنيهما. لا. إنه لا يهتم بهذا العالم حتى أدنى اهتمام. كان غير مبال به. هكذا ظن نفسه على أي حال.

لكنه لا يستطيع أن يظل غير مبالٍ تماماً مثل ما ظنَّ. ذلك لأنه يكرهه. من الأمور التي بدت له غير حقيقية، المواكب العديدة التي تخترق الشوارع، بكهنتها ومؤمنيها وشاراتها المقدسة. كان غريباً عليه، هو الذي بلا إله، أن يلقاها دوماً، وأن يفسح لها كي تمر. ملتصقاً بجدران البيوت كان يراقبها متلصصاً من طرف عينه. مرةً تتبع أحد هذه المواكب إلى معبد لم يكن رآه من قبل، وعندما صار داخله، كالآخرين، توقف أمام صورة أمّ تحمل طفلها بين ذراعيها، وعندما استفسر عمن تكون، أجيب بأنها ايزيس المباركة مع الطفل حورس. غير أنهم شرعوا ينظرون إليه متشكّكين، إلى مَنْ لا يعرف اسم الأم المقدسة، وجاء أحد حراس المعبد وأخرجه، وعند البوابة النحاس أدى الحارس إشارة سرية لحمايته وحماية المعبد. ربما رأى أن باراباس قد حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، فصار يكره كل ما في السماوات والأرض، وخالق السماوات والأرض.

اندفع باراباس مبتعداً، الندبة أسفل خده تتّقد حمراء، ويؤبؤا عينيه الغائرتين يرتجفان كنصلي سهمين، اندفع شارعاً بعد شارع، ودرباً بعد

درب. اذهبْ، أيها الشرير! فقد التركيز، ولم يعد يعرف أين هو، وعندما وجد سبيله، أخيراً، إلى المنزل، كاد يتعرض للعقاب - لكنهم لا يجرؤون على فعل ذلك، إذ هم عارفون حظوته لدى رب البيت. كما أنهم صدقوا شرحه المضطرب حول ضياعه في مدينة لايزال يجهلها. وعندما انكمش في زاويته بزنزانة العبد، وتمدد في العتمة، شعر بأن «يسوع المسيح» المشطوبة تتقد كالنار في صدره اللاهث. تلك الليلة، حلم بأنه مغلول إلى عبد يتمدد جنبه وهو يصلّي. لكنه لم يعرف مَنْ ذلك العبد.

سأل باراباس العبدَ:

- لِمَ تصلّي؟ ما الفائدة؟

أجاب العبد، من العتمة، بصوت يعرفه جيداً:

- أنا أصلّي لأجلك.

بعدها، تمدّد باراباس، وظل في منتهى السكون، كي لا يزعج الرجل المصلي، وشعر بعينيه الهرمتين تغروروقان دمعاً. لكنه حين استفاق وتحسس الأرضية بحثاً عن السلسلة، لم يجدها. لا سلسلة، ولا عبد أيضاً. ما كان مغلولاً إلى أحد. ما كان مغلولاً إلى أي أحد في العالم بأسره.

صادف مرةً، وهو وحيد في إحدى الزنزانات تحت القصر، أن رأى علامة سمكة محفورة في الجدار، في موضع غير بارز.

كانت محفورةً حفراً أخرق، لكن لم يكن ثمة شك في مبتغاها ومعناها. وقف متسائلاً عمن من العبيد قد يكون مسيحياً. تساءل طويلاً، في الأيام والأسابيع التي تلت، ولاحظ كل واحد منهم، متمحصاً لعله يعرف المسيحي. غير أنه لم يسأل أحداً. ولم يستفسر عما إذا كان

أحدهم يعرف. في هذه الحالة ليس في الأمر صعوبةٌ. لكنه لم يفعل.

إنه لم يخالط العبيد الآخرين، أكثر مما هو ضروري. لم يحدِّث أحداً منهم، بتاتاً، ولهذا لم يعرفهم. ولهذا لم يعرفه أحد، ولا اهتم بشأنه أحد.

عرف أن في روما مسيحيين كثاراً. عرف أنهم يجتمعون في أماكن صلاتهم، وإخوانيّاتهم، في أرجاء مختلفة من المدينة. لكنه لم يبذل جهداً لبلوغهم. ربما خطر له هذا، مرةً أو مرتين، إلا أنه لم يذهب. لقد حمل اسم إلههم محفوراً على قرصه، لكنه شطب.

واضح أنه كان عليهم، مؤخراً، أن يجتمعوا سراً، في أماكن أخرى، خشيةَ الاضطهاد. سمع باراباس عن الأمر، في السوق، من كثار أشاروا بأصابعهم خلفهم كي يبعدوا الشر، تماماً مثل ما فعل حارس معبد الأم المقدسة إزاءه. كانوا ممقوتين، مكروهين، مشكوك في أنهم سحرة، وما إلى ذلك. أما إلههم فهو نذير شرٍ منحوسٌ، صُلِبَ منذ أمد بعيد. لا أحد يريد الاختلاط بهم.

في إحدى العشيّات طرق سمع باراباس صوت عبدين يقفان متهامسين في عتمة الزنزانة، ما كانا يريانه، ولهذا حسبا أنهما وحيدان. باراباس هو أيضاً لم يستطع رؤيتها، لكنه عرفهما من صوتيهما. كانا عبدين اشتريا حديثاً، ولم تمضِ عليهما أسابيع عدة في القصر. كانا يتحدثان عن لقاء أخوّة يتم مساء غدٍ في كروم ماركوس لوسيوس على الطريق الآبيّ. وبعد برهةٍ أدرك باراباس أن لقاءهم لن يكون في الكروم، بل في المقابر اليهودية التي تبدأ من هناك.

ملتقى غريب... بين الأموات.

... كيف يستطيعون الالتقاء هناك..؟

عشية اليوم التالي، وفي وقت مناسب قبل الإغلاق الليلي لزنزانة العبيد، انسل من القصر، مخاطراً بحياته.

عندما بلغ الطريق الآبي كان الوقت مساءً، ولا أحد يكاد يُرى. سأل راعياً كان يقود قطيعه عائداً، عن الكروم.

ما أن صار تحت الأرض، حتى شرع يتحسس طريقه، في الممر الضيق الزلق. نور الأصيل من المدخل، لايزال يهديه وهو يمضي، هابطاً، إلى رواق الدفن الأول، ورأى كيف يمتد هذا الرواق في الظلام. تلمّس سبيله فيه، يتحسسه بيديه، مع البرد والبلاط الحجري الرطب للجدران. فهم من العبدين أن ملتقاهم سيتم في قاعة الدفن الكبيرة الأولى. اتجه إليها.

الآن، ظن أنه استطاع أن يسمع أصواتاً. توقف وأنصت – لا. لا صوت. استمر. عليه أن يتقدم، حذراً، طوال الوقت، فهناك درجات. واحدة أو عدة. تهبط عميقاً فعميقاً في الأرض. استمرّ متقدماً.

لكنه لم يبلغ أي قاعة دفن. كان لايزال في الرواق الضيق ذاته. الآن يشعر بأن الرواق يتفرع، ولا يعرف أي فرع يختار. توقف متردداً مغمغماً، لا يدري ما يفعل. ثم رأى بصيص نور في البعيد البعيد. أجل! إنه بصيص نور! أسرع إليه. يجب أن يكون الملتقى هناك!

فجأةً، لم يعد ثمة من نور يرى. اختفى – ربما استدار دون أن يدري، في ممر مختلف، ممر فرعي في أول منعطف. تراجع مسرعاً كي يرى النور من جديد. لكنه اختفى. لم يعد في المكان نور!

وقف هناك دائخاً تماماً. أين كانوا؟ أين يجدهم! أليسوا هنا، إذاً؟

ترى، أين هو نفسه؟ آه، أجل، عرف كيف وصل إلى هنا، وبمقدوره أن يجد سبيل عودته إلى المدخل. وقرر أن يعود حيث جاء.

لكنه، وهو يسير عائداً على الرواق الذي عرف أنه سلكه طوال الوقت، وتثبّت من كل درجة صاعدة فيه، لمح، بغتةً، بصيصَ النور، ثانيةً. كان وهجاً قوياً لا تخطئه العين، لكن في ممر فرعي لم يتبيّنه سابقاً، وليس في الاتجاه نفسه، كما من قبل. ينبغي أن يكون الوهج ذاته، فليسرع إليه - يجب أن يكون هناك! صار الوهج أشد فأشد تألقاً. حتى انطفأ فجأة. اختفى هكذا.

وضع يده على رأسه. على عينيه. أي نورٍ هذا الذي رآه؟ أتراه لم يكن نوراً؟ أكان محض خيال؟ أم أن عينيه خائبتان؟.. أكان مثل ذلك الذي رآه منذ زمن، منذ زمن بعيد؟ فرك عينيه وتطلّع حوله...

لا. لا نور هنا إطلاقاً! لا نور في أي مكان، ومن أي اتجاه! عتمة لانهائية، باردة كالثلج تطوّقه، عتمة هو فيها وحيد - إذ هم ليسوا هنا أبداً، لا نفس هنا، لا بشر سواه، الموتى فقط!

الموتى! إنه محوط بالموتى.

في كل مكان، ومن كل اتجاه، في كل ممر ورواق، حيثما التفت. ترى، أنى يذهب؟ إنه لا يعرف أي طريق يسلك للخروج ثانية، الخروج من هنا، من مملكة الموتى...

مملكة الموتى!... كان في مملكة الموتى... لقد أطبق عليه في مملكة الموتى!

ملىء رعباً. رعباً خانقاً. وفجأة اندفع، على غير هدى، فزعاً، في أي اتجاه، متعثراً على الدرجات غير المرئية، في ممر عبر آخر، محاولاً أن

يجد طريقاً للخروج، طريقاً خارج مملكة الموتى... ظل يتخبط في القاع، هناك، مأفوناً، لاهثاً، طالباً النَفَس... في النهاية صار يمضي مترنحاً عبر الممرات، مرتطماً بالجدران، جدران الموت، التي لن يكون خارجَها...

أخيراً، شعر بتيارٍ من الهواء الدافئ يرتفع من الأرض، من العالم الآخر... جرجر نفسه، نصف واعٍ، على المنزلق، وصعد ليكون بين الكروم.

هناك تمدَّد على الأرض، يستريح، ويَصعِّد بصره إلى قبة السماء المظلمة.

الظلام في كلِّ مكانٍ. في السماء كما في الأرض. في كل مكان...

عندما سلك باراباس سبيل العودة إلى المدينة، عبر طريق فيا آبيا الليلي، أحس بوحدة شديدة. ولم يكن هذا الإحساس بسبب أن أحداً لم يمش بجانبه، أو يمر به، لكن بسبب أنه وحيد في ليل لا نهائي يطبق على الأرض جمعاء، وحيدٌ في السماوات والأرض، وحيدٌ بين الأحياء والأموات. لقد كان هكذا دوماً، لكنه لم يدرك ذلك إلا الآن. سار في الظلام كأنه دفينٌ فيه، سار هناك والندبة في وجهه المستوحش الهرم، الندبة التي هي أثر من ضربة أبيه. وفي شعر صدره المغضن يتدلى قرص العبد وقد شطب منه اسم الله. أجل كان وحيداً في السماوات والأرض.

لقد غرق في نفسه، في مملكة موتاه الخاصة. كيف يستطيع الفكاك؟ مرةً واحدةً، مرةً واحدةً فقط، اتّحد مع آخر، لكن ذلك بسلسلة حديد، وحسب. لا بشيء، إلا بسلسلة حديد.

سمع وقع خطاه على صخر الطريق. ما عدا ذلك، كان الصمت مطبقاً، وكأن لا أحد سواه في العالم بأسره. من كل الجهات كانت الظلمة

تحـوطه. لا نور. لانور في أي مكان. لا نجـوم فـي السـمـاء، وكل شيء موحشٌ، قفرٌ.

تنفس ثقيلاً، فالهواء كان حرِّيفاً حاراً. كأنه محمومٌ - أم تراه هو المحـموم، هو المريض، الذي أصيب بعـدوى الموت هناك في الأسـفل؟ الموت! كان دوماً في داخله. كان دوماً في داخله مادام على قيد الحياة. الموت يصطاده داخل نفـسـه، فـي مـسـرب الخُلْد المظلم لذهنه، ويملؤه بالرعب. ومع أنه عجوزٌ الآن، ولا رغبة لديه في العيش أطول، فما زال يملؤه بالرعب، أيضـاً. مع أنه أراد أكـثر... أراد فـقط... لا. لا. لا أن يموت! لا أن يموت!

لكنهم اجـتـمـعـوا هناك في الأسـفل، في مملكة الموتى كي يصلّوا لإلهـهم، كي يتّحدوا معـه، ومع بعضـهم. ما كـانوا يهابون الموت. لقد انتصروا عليه. اجتمعوا للقاءات أخوّتهم، لأعياد حبِّهم... ليحببْ أحدكم الآخر... ليحببْ أحدكم الآخر...

إلا أنه حين جاء لم يكونوا هناك، لا أحد منهم كان هناك. لقد تاه، حسبُ، وحيداً في ظلام الممرات، في مسارب خُلْده الخاصة...

أين كانوا؟ أين كان أولئك الذين أحب أحدُهم الآخر، كما ادّعوا؟

أين كـانوا في هذا الليل، هذا الليل المتـقد - الآن وقد دخل المدينة أحسّ بالهواء أشدّ وطأةً - ليل الحمّى هذا الذي لا يكاد يستطيع التنفس فيه - الليل الذين كان يخنقه...

عندما انعطف في زاوية طريق شعر برائحة الدخان تأتيه ثانيةً. كانت صاعدةً من قبو بيت غير بعيد، كان الدخان يخرج من القبو، كما أن ألسنة اللهب كانت تتخافق من كوّتي تهوية... أسرع نحو المكان.

عندما ركض سمع صرخات تحيطه من أناس آخرين يركضون.

- النار! النار!

في مفترق شوارع، وجد النار مشتعلةً في شارع فرعي أيضاً، أشدّ اتقاداً. ذُعِرَ، وعجز عن الفهم... وفجأة سمع صيحاتٍ من مبعدة ما:

- إنهم المسيحيون! إنهم المسيحيون!

ومن ناحيةٍ إلى أخرى:

- إنهم المسيحيون! إنهم المسيحيون

للوهلة الأولى، ظل ذاهلاً، كأنه عاجز عن فهم ما قالوا، وقصدوا. المسيحيون؟ ثم فهم ما قالوا، وأدرك الأمر.

نعم! إنهم المسيحيون! إنهم المسيحيون يشعلون في روما الحرائق! يشعلون الحرائق في العالم بأسره.

عرف الآن سبب عدم وجودهم هناك. كانوا هنا ليشعلوا الحرائق في روما الآثمة هذه، في العالم الآثم هذا! لقد حلّت ساعتهم! والمخلّص جاء!

عاد المصلوب. رجلُ الجُلجُلة عاد. ليخلّص البشرَ، ويدمِّر العالم، مثل ما وعد. ليُبيده، ليُفنيه في اللهب، مثل ما وعد! الآن يُظهر جبروته حقاً. وعليه هو، باراباس، أن يساعده! باراباس الشرير، أخوه الشرير من الجلجلة، لن يخذله. ليس الآن. ليس هذه المرة. ليس الآن! كان اندفع للتو إلى أقرب اشتعال، واختطف لوحاً مشتعلاً وقذفه في نافذة قبو بمنزل آخر. ثم شرع يأخذ لوحاً مشتعلاً بعد لوح ويقذفها في أماكن جديدة، في أقبية جديدة. ولم يخطئ باراباس. باراباس لم يخطئ. إنه يشعل النيران جيداً. لا تهاون! ألسنة اللهب تندلع من المنازل، منزلاً تلو آخر، مشعلةً كل الجدران. كل شيء كان يحترق. واندفع باراباس إلى

أمام، ليشعل النيران أكثر، اندفع لاهثاً واسم الله مشطوب على صدره. لم ينخذل باراباس لن يخذل ربه حين احتاج إليه فعلاً، حين حلّت الساعة، الساعة العظمى آن يفنى كل شيء. النار تنتشر. تنتشر! كل شيء كان بحراً وسيعاً من النار. العالم كله. العالم بأسره كان يشتعل!

انتبهوا، إن ملكوته هنا!

انتبهوا، إن ملكوته هنا!

-١٥-

في السجن، تحت الكابيتول، جُمع كلُّ المسيحيين المتهمين بإشعال الحرائق، ومن بينهم باراباس أيضاً. ألقي القبض عليه متلبِّساً بالجرم المشهود، وبعد الاستجواب جيء به إلى هنا، ووضع معهم. كان واحداً منهم.

السجن محفورٌ فعلاً في الصخر، والجدران تنز بالرطوبة. وفي ما يشبه العتمة لم يكن الواحد ليرى الآخر بوضوح، مما أفرح باراباس. كان يجلس وحده على التبن العفن، مائلاً إلى جنب، مشيحاً عمّا سواه.

تكلموا كثيراً عن الحرائق والمصير الذي ينتظرهم. إن اتهامهم بإشعال الحرائق كان ذريعة محضاً للقبض عليهم وإصدار الأحكام ضدهم. قاضيهم يعرف جيداً أنهم لم يفعلوا ذلك. حتى واحد منهم لم يكن ثمة؛ لم يغادروا أبوابهم بعد أن حُذِّروا من أنهم سيتعرضون للاضطهاد، وأن ملتقاهم في المقابر قد أُبلِغتْ به السلطات. كانوا أبرياء. لكن هل يهمّ هذا؟ الجميع أرادوا أن يروهم مذنبين. الجميع أرادوا أن يصدقوا بهتافات الغوغاء المأجورين: «إنهم المسيحيون! إنهم المسيحيون».

- مَنْ استأجرهم؟

قال صوت من الظلام. لكن الآخرين لم يعيروه انتباهاً.

كيف يستطيع أتباع المعلم أن يرتكبوا أمراً مثل إشعال الحرائق،

مثل إضرام النار في روما؟ كيف بمقدور أحد تصديق هذا؟ معلمهم أوقد النار في النفوس البشرية، لا في المدن. كان ربَّ العالم وإلهه، لا مدمِّرَه.

وأخذوا يتحدثون عنه، عمَّن كان الحبَّ والنورَ وعن ملكوته المنتظر حسب ما وعد. ثم غنوا ترانيم بكلمات غريبة حبيبة لم يسمعها باراباس من قبل، البتة. جلس منكس الرأس ينصت إليهم.

اللوح المرصّع بالحديد خارج الباب سحب إلى جانب، وسمع صرير عضادات، ثم دخل سجّان. ترك الباب مفتوحاً كي يدخل مزيد من الضوء وقت إطعام السجناء المكلف به. أما هو فقد كان واضحاً أنه أخذ كفايته من الطعام والخمر، إذ كان متورّد الوجه، كثير الكلام. رمى بالطعام إليهم، وهو يطلق شتائم بذيئة، وكان الطعام لايكاد يؤكل لفرط رداءته. لم يقصد أي أذى بشتائمه، على أي حال، إذ كان يتحدث بلغة مهنته، اللغة التي يستعملها السجانون كافةً. بل إنه ليبدو طيب السريرة. وعندما لمح باراباس الذي كان يجلس، مصادفةً، في ضوء المدخل، أطلق ضحكةً مجلجلةً. صاح:

– ها هو ذا الأحمق المجنون! الذي ظل يدور يشعل الحرائق في روما! أيها الأبله. والآن تقولون جميعاً إنكم لم تشعلوا النار في أي شيء!

أنتم جمعٌ من الكذابين! لقد أُلقي القبضُ عليه وهو يقذف لوحاً مشتعلاً في مستودع زيت كايوس سرفيوس.

ظل باراباس غضيض البصر. كان وجهه صلداً بلا تعبير، لكن الندبة تحت العين كانت تتّقد حمراء.

السجين الآخر التفت إليه مندهشاً. لم يعرفه أحد. ظنوه مجرماً،

واحداً لا ينتسب إليهم. بل إنه لم يستجوب، أو يوضع في السجن، وقتَ استُجوبوا وسُجنوا.

تهامسوا بينهم:

- مستحيل!

تساءل السجّان:

- ما المستحيل؟

قالوا:

- لا يمكن أن يكون مسيحياً، إن فعل ما قلته.

- لا يمكن؟ لكنه قال ذلك بنفسه. مَنْ قبضوا عليه أخبروني هكذا، أخبروني بكل شيء. بل لقد اعترف في الاستجواب.

غمغموا متضايقين:

- نحن لا نعرفه. ولو كان منا لعرفناه بالتأكيد. إنه غريبٌ علينا تماماً.

- أنتم جمعٌ لطيف من الثرثارين! انتظروا لحظةً تعرفوا!

ذهب إلى باراباس وقلب قرصه.

- انظروا إلى هذا - أليس ذلك اسم إلهكم حقاً؟ أنا لا أفهم هذه الكتابة، لكن.. أليست كذلك؟ اقرؤوا بأنفسكم!

تجمعوا حوله، وحول باراباس، محدقين دهشةً إلى النقش على قفا القرص. معظمهم لم يستطع فك الشفرة، لكن واحداً أو أكثر همس بصوت خافت قلق:

-يسوع المسيح... يسوع المسيح...

طوّح السجان بالقرص، إلى مكانه على صدر باراباس، ونظر حوله

منتصراً:

- والآن ماذا تقولون، إيه؟ ليس مسيحياً، إيه؟ لقد أراها إلى القاضي نفسه وقال إنه ليس ملك الإمبراطور بل هو ملك الإله الذي يصلي له، ذلك المصلوب. واليوم سوف يصلب هو أيضاً، بمقدوري أن أقسم على ذلك. وكلكم جميعاً جزاء ما فعلتموه! مع أنكم أشد مكراً منه. كيف بلغ الغباء بأحد منكم حد أن يركض ليلقي بنفسه بين أيدينا قائلاً إنه كان مسيحياً!

ابتسم ابتسامةً عريضةً إزاء وجوههم المكفهرة، وخرج، صافقاً الباب خلفه. تكأكؤوا، من جديد، على باراباس، وأخذوا يمطرونه غاضبين بالأسئلة.

مَنْ هو؟ أهو مسيحي حقاً؟ إلى أي أُخُوَّةٍ ينتسب؟ أصحيحٌ، أنه بدأ إشعال النار؟

لم يجب باراباس. كان وجهه كابياً بلون الرماد، وعيناه الهرمتان غارتا فلم تعودا تبينان.

- مسيحي؟ ألم ترَ النقشَ قد شُطب؟

- هل شُطب؟ هل شُطب اسم الرب؟

- طبعاً شُطب. ألم تلاحظ؟ ألم تره؟

رآه أكثر من واحد، لكنهم لم يهتموا بالأمر. ماذا يعني في النهاية؟ اختطف أحدهم قرص العبودية، وحدّق إليه من جديد؛ مع أن الضوء أسوأ الآن، استطاعوا أن يروا النقش مشطوباً بصليب غير متقن، بوساطة سكين ويدٍ قوية.

سألوه الواحد بعد الآخر:

- لماذا شطب اسم الرب؟ ما معنى ذلك؟ ألا تسمع؟

- ما معنى ذلك؟

لكن باراباس لم يجب حتى الآن. جلس أهدل الكتفين، متجنباً النظر إلى أي واحد منهم، تركهم يفعلون ما يشاؤون بقرص عبوديته، لكنه لم يجب. صاروا أكثر انفعالاً وتعجباً منه، من هذا الذي ادّعى المسيحية، لكنه لا يمكن أن يكون مسيحياً. كان سلوكه الغريب مبعث حيرتهم. أخيراً ذهب بعضهم إلى شيخ كان جالساً في الظلمة، بعيداً داخل الزنزانة، غير مشارك في ما كان يدور بينهم. بعد أن تكلموا معه، فترةً، نهض، ومضى معهم إلى باراباس.

كان رجلاً ضخماً، عريض القفا، لايزال بالغ الطول، بالرغم من انحناء هين. يكسو رأسه القوي شعر طويل خفيف أبيض تماماً مثل لحيته المتدلية على صدره. كان له تعبير آمرٌ لكنه في منتهى اللطف، كانت العينان زرقاوين، واسعتين صافيتين، كعيني الطفل، لكنهما مفعمتان بحكمة العمر.

توقف أولاً ينظر طويلاً إلى باراباس، وإلى وجهه الملوّح الهرم. ثم بدا أنه يستذكر أمراً، فأومأ برأسه تأكيداً. قال معتذراً وهو يجلس على التبن قبالته:

- منذ زمن بعيد...

الآخرون الذين تكأكؤوا، استغربوا جداً. ترى، هل عرف أبوهم المبجّل هذا الرجل؟

من الجليّ أنه عرفه، حين بدأ معه الحديث. سأله عن مجريات حياته. وأخبره باراباس عما جرى له. ليس بالكامل، وإنما بالقدر الكافي

ليجعل الرجل الآخر يفهم أو يتصوّر معظم ما جرى له. وعندما فهم أمراً لم يكن باراباس ليود ذكره، اكتفى بأن هزّ رأسه صامتاً. تحدثا طويلاً، وإن كان ليس من عوائد باراباس أن يفضي بسرٍّ إلى أي شخصٍ، وهذا ما لم يفعله أيضاً حتى هنا. لكنه أجاب عن أسئلة الآخر بصوت خفيضٍ متعبٍ، بل لقد نظر بين حين وآخر في العينين الطفليتين الحكيمتين والوجه الهرم المغضّن، الذي كان ملوّحاً مثل وجهه، لكن بطريقة أخرى. كانت الغضون عميقةً فيه، لكن الوجه مختلف تماماً، وهو يشع اطمئناناً لا مثيل له. البشرة التي حفرتها الغضون كانت بيضاء تقريباً، والخدان كانا غائرين. ربما العدد القليل المتبقي من أسنانه. لكنه في الواقع لم يتغير إلا يسيراً. ولا يزال يتكلم بلهجته المحلية الواثقة.

استطاع الشيخ المبجّل أن يعرف، تدريجاً، لماذا شطب اسم الرب، والسبب الذي جعل باراباس يُسهم في إحراق روما - لقد أراد أن يساعدهم ويساعد المخلِّص لإشعال النيران في هذا العالم. هز الشيخ ذو الشعر الشائب رأسه، امتعاضاً، حين سمع ذلك. استفسر من باراباس كيف كان بمقدوره أن يفكر بأنهم هم مَنْ أشعلوا النيران. قيصر نفسه هو مَنْ فعل ذلك، الحيوان المتوحش نفسه، وباراباس ساعد قيصر. وقال:

- لقد ساعدت هذا الحاكم الدنيوي... الحاكم الذي ذكر قرص عبوديتك أنك عائد له، ولم تساعد الرب الذي شطب اسمه من القرص. لقد خدمت سيدك الشرعي بدون أن تعرف. سيِّدُنا هو الحب. وتناول القرص المتدلي على صدر باراباس بين الشعر الأشيب، ونظر أسفاً إلى اسم ربه وسيده المشطوب.

ترك القرص يسقط من بين أصابعه الشائخة، وتأوه تأوهاً ثقيلاً. إذ

أدرك أن هذا هو قرص باراباس، القرص الذي عليه أن يحمله، وأن لا شيء، إطلاقاً، قادر على مد يد العون إليه. كما أدرك أن الآخر عرف هذا أيضاً، رأى ذلك في عيني الآخر الخجولتين المتوحدتين.

- مَنْ هو؟ مَنْ هو؟

صاحوا جميعاً حين نهض الشيخ من مجلسه. في البداية لم يشأ أن يخبرهم، محاولاً تجنب ذلك. لكنهم ظلّوا يلحّون حتى استجاب مضطراً. قال:

- إنه باراباس، الرجل الذي أطلق بدلاً من المعلّم.

حدَّقوا إلى الغريب، مصعوقين. ما كان لأمرٍ أن يصدمهم أو يجبههم أكثر من هذا.

تهامسوا:

- باراباس! باراباس الطليق! باراباس الطليق!

لكأنهم عاجزون عن التصديق. والتمعت عيونهم حدةً وتهديداً في الظلام الشفيف.

لكن الشيخ هدأهم. قال:

- إنه امرؤ شقي، وليس لنا حق في إدانته. نحن أنفسنا مليئون بالخطأ والتقصير، ولن نتباهى بأن الرب أشفق علينا جميعاً بلا استثناء. ليس لنا حق في إدانة شخص لأنه بلا رب.

وقفوا وقد نكسوا رؤوسهم، وغضّوا من أبصارهم، كأنهم لم يعودوا يجرؤون على النظر إلى باراباس بعد هذا. بعد تلك الكلمات الشنعاء الأخيرة. ابتعدوا عنه صامتين إلى حيث كانت مجالسهم، من قبل. تأوه الشيخ، وتبعهم، ثقيل الخطو.

باراباس، جلس هناك وحيداً.

توالت أيام سجنه، وهو جالس، وحيداً، إلى جانب، بعيداً عنهم. سمعهم ينشدون أغاني دينهم، ويتكلمون بثقة عن موتهم وعن الحياة الأبدية التي تنتظرهم. وبعد أن صدر الحكم عليهم، صاروا يتحدثون أكثر. كانوا شديدي الإيمان، لا يخالجهم في هذا أدنى شك.

باراباس، أنصت عميقاً في تفكّراته. هو أيضاً فكّر في ما ينتظره. تذكر الرجل على جبل الزيتون، الرجل الذي قاسمه الخبز والملح، والذي هو الآن ميت ثانيةً، منذ زمن بعيد، مبتسمٌ، مع جمجمته في الظلام المستديم.

الحياة الأبدية...

أكان ثمة معنى في الحياة التي عاشها؟ إنه لايؤمن حتى بهذا. لكن هذا أمر لا يعرف عنه شيئاً. وليس هو مَنْ يحكم.

هناك يجلس الشيخ ذو اللحية البيضاء بين قومه، يستمع إليهم ويحدِّثهم بلهجته الجليلية الجليّة. لكنه، أحياناً، يريح رأسه على يده العريضة، ويجلس هناك، صامتاً لبرهة. ربما كان يفكر بشاطئ جنيساريت، وبأنه ود لو يموت هناك. لكن ذلك لن يحدث. لقد التقى معلّمه على الطريق، قال له «اتبعْني»، وكان عليه أن يفعل. نظر أبعد منه، بعينيه الطفليتين، وشعَّ وجهه المغضّن، ذو الخدين الغائرين، باطمئنان لا حدَّ له.

وهكذا اقتيدوا كي يصلبوا. كانوا مغلولين اثنين اثنين، ولأن عددهم لم يكن شفعيّاً، جاء باراباس في آخر الموكب، غير مغلولٍ إلى أحد. حدث الأمر هكذا؛ مجرد مصادفة. وبهذه الطريقة أيضاً عُلّق، الأبعدَ،

في صفٍّ الصلبان.

التمَّ حشدٌ كبير، ومرّ وقت طويل قبل أن ينتهي الأمر. لكن المصلوبين ظلوا طوال الوقت يتكلمون مع بعضهم مواسين، آملين.

مع باراباس لم يتكلم أحدٌ.

آن هبط المساء، كان المتفرجون عادوا إلى منازلهم، متعبين من الوقوف، أكثر، هناك. ثم أن المصلوبين، حينها، كانوا أسلموا الأرواح، جميعاً.

باراباس وحده، ظل معلقاً هناك، وحيداً، لم يمت بعد. عندما أحس بدنو الموت، هذا الذي كان دائماً يخشاه، قال في الظلام، كأنه يخاطبه:

- إليك أسْلمُ روحي...

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

تمت ترجمتها صباح التاسع من حزيران٢٠٠١

بمدينة ميدالين، في كولومبيا (أميركا الوسطى)

الجديد من اصدارات المدى

الكتاب	المؤلف	المترجم
والدة	فرانسوا موریاك	محمد عبد الحميد عنبر
مائة عام من الفكر النقدي	سعيد الغانمي	
اجتماع شمل العائلة	ت.س. اليوت	محمد حبيب
نجمة تقود البحر	عبد الفتاح اسماعيل	
ماكينة الابصار	بول فيريليو	د.حسان عباس
جمال على معطف القيصر	سيغريد هونكي	صلاح حاتم
للحكاية وجه آخر	روز شوملي	
العقل الايماني	حسن ابراهيم احمد	
اقتفاء الاثر	خليل صويلح	
الهاربون من الحرية	غالب هلسا	
مختصر تاريخ الاسماعيليين	فرهاد دفتري	سيف الدين القصير
نوافذ الغرفة المعتمة	محمد شمس الدين لصوطحة	
سياف الزهور	محمد الماغوط	
موسيقى الالوان	جبر علوان	
لواعج الاصفر	محمد سعيد الصكار	
طبيبة في بيت البرزنجي	ايلونا بورسكا	حسين العامل
الازمنة الضائعة	احمد الزيدي	
اليوتوبيا المفقودة	محمد كامل الخطيب	
شرف	صنع الله ابراهيم	
فلسفة الشعر الجاهلي	د.هلال الجهاد	

بار لا غركفيست

نوبل 1951

ولد لاغركفيست في 1891/5/23

أول ديوان شعر له هو (قلق) عام 1916 وبعد
ثلاث سنوات نشر مجموعة صغيرة من القصائد
والمقطوعات الدرامية والملحمية عنوانها (فوضى) .
تأثر في أعماله بالحرب العالمية الأولى ، وكتبها
بأسلوب (تعبيري) وفيها يؤكد ايمانه بالروح
البشرية ، كما في كتابيه اللذين ترجم فيهما
لحياته : (ضيف الحقيقة) 1925 و (الانتصار على الحياة) 1927 .
تعكس مؤلفاته الأخيرة اهتمامه بالمشكلات
السياسية والاجتماعية ومنها المسرحيات
(إنسان بلا روح) 1936 . و (انتصار في الظلام) 1939 .
و (القزم) 1944 وانتخب عضواً في الأكاديمية السويدية .

توفي في 11 تموز 1977 .

علي مولا

ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056